الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب مصر

كان بمصر قل الفتح العربي الإسلامي لغات وعناصر جنسية مختلفة، فقد كان بها إغريق منذ عهد البطالمة، وكانت اللغة الإغريقية- منذ زمانهم وفي عهد الرومان- اللغة الرسمية للدولة. وكان بها بعض السريان في القاهرة وبعض الأديرة، وكانوا يهتمون الطب، وُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عد العزيز كتاب في الطب لأهرون القس. وكان بها رومان، وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الروماني. وطبيعي أن يتكلموا لغتهم اللاتينية. وكان بها بعض اليهود وخاصة في الإسكندرية وكانوا يتكلمون العربية. وأهم من تلك العناصر جميعا جماهير مصر من القبط، وهم عامة الشعب وسواده، وكانوا يتكلمون القبطية، وكانت لها لهجات تتفاوت بتفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية.

وبمجرد أن نزل العرب مر لم يعد للاتينية أي شأن، فقد طُردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطي الذي غادر البلاد مدحورا مهزوماً. وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت في الزوال واضمحلت العربية. أما اللغة الإغريقية فظلت حية في الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفي كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عد الملك

أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية (٤٢٦) وسرعان ما هُجرت ونُبذت إلا كلمات قليلة سقطت في العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية.

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان في البلاد، إذ كانت لغة التخاطب اليومي، غير أنها كانت متخلفة، إذ لم تحتفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبي الفرعوني عند أمثال حوتب الكاتب وبِنْتاءور الشاعر، واستحالت لغة فقيرة مجدبة في معجمها اللغوي وفي أساليبها البيانية، وكل ما كانت تحمله حتى الفتح كتابات دينية جافة (٤٢٧)، ليس فيها شيء من روعة البيان، كتبت في العهد الروماني أن قبيل الفتح وبعده. وحتى من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خصبة من القبط آثر أن ينظم شعره باليونانية محاكيًا لهوميروس أو لغيره من شعراء اليونان (٤٢٨). ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبي تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبي البديع. فأخذت تكتسحها وتظفر بألسنة القبط عاما بعد عام.

---

(٤٢٦) خطط المقريزى ١/ ١٨١ وفيه أن نقل الدواوين بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من الإغريقية إلى العربية، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى نشرها جروهمان فى مواضع متفرقة وهى صادرة عن الوالى باللغتين اليونانية والعربية، وانظر أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة ـ نشر دار الفكر العربي) للدكتور محمد كامل حسين ص٣٠.

(٤٢٧) انظر فتح العرب لمصر لبتلر ترجمة محمد فريد أبى حديد ٨٥ وموجز تاريخ اقبط الملحق برسلة مارمينا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص١٥٥ وأدب مصر الإسلامية ص٦.

(٤٢٨) راجع أدب مصر الإسلامية ص٤.

وعاملان قويان أخذا يعملان بسرعة على تعرب مصر، أما أولهما فدخول كثيرين من البط في الإسلام لما رأوا من تعليمه السامية، ولما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، يقول بتلر: "كان في ذلك باعث قوى لكثير منه على الدخول في الإسلام لا سيما وقد طحن المقوقس الحاكم الرواني أو البيزنطي عقيدتهم (الأرثوذكسية) طحنا"(٤٢٩). ومعروف أن الرومان أو قل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لا يطاق، وكانوا ينهبون طيبات مصر نهبا، ويعتصرون خيراتها اعتصارا، فكان الإسلام للقبط ملاذا وملجئا. وعَدُّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لا يطاق، وأخذوا يدخلون في دين الله الحنيف، ويمضى بتلر قائلاً: "وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حَلَّ منهم في مصر". وكلما قطعنا شوطا زمنيا بعد الفتح تزايد عدد الداخلين من البط ف الإسلام، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التي كانت تؤخذ من القبط، وكانت لا تؤخذ إلا من القادرين على حمل السلاح، فلا تؤخذ من شيخ ولا صبى ولا امرأة ولا راهب، وقلما كانت تزيد على دينار، وربما أصبحت نصف دينار، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثني عشر ألف ألف دينار، فنقصت في عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف (٤٣٠)، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط في الإسلام في الفترة الأولى من الفتح العربي، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان في الإسلام لم نكن مغالين. وظل عدد مَنْ يسلمون في أزدياد مع السنين حتى إذا ولى

---

(٤٢٩) بتلر ص ٢٤٣.

(٤٣٠) بتلر ص ٤٠٣ وانظر البلدان لليعقوبى ص ٣٣٩.

حيان بن شريح لعمر بن عد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيناه يكتب إلى عمر: إن الإسلام قد اضرَّ بالجزية، حتى اضطررت إلى اقتراض عشرين ألف دينار أتمتُ بها عطاء أهل الديوان، وكأنه كان يريد أن يبقى الجزية على من يسلمون من القبط، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلاً: "أما بعد فقد بلغني كتابك، وقد ،ولَّيتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولي بضربك عشرين سوطا على رأسك. فضع الجزية عمن أسلم قبَّح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابياً يجمع الأموال (٤٣١) " وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر ن الخطاب يُقْبلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوي وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر.

وعامل ثان لا يقل عن هذا العامل خطرا في تعريب مصر، هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بخصبها وزروعها وثمارها. وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية في عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بنى سليم والقبائل الهلالية في عهد الدولة الفاطمية. غير أنه كان وراء هذه الهجرات سبل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر. وكان كل وال في العهد الأموي يصحبه كثير من الجند، وكانت مصر قريبة من الجزيرة العربية فنزلها كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق. وتُعْنى كتب ببيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلا بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزي. وطبيعي أن تختلط هذه القبائل بسكان مصر لا في مدنهم فحسب. بل أيضاً

---

(٤٣١) خطط المقريزى ١/ ١٤٣.

في ريفهم. فقد سن لهم عمرو بن العاص أو قل سن لجنده أن يرتبعوا أو يقضوا الربيع في ريف مصر ثم يعودوا إلى الفسطاط. ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطيسيات القبطيات (٤٣٢). من بينهم عون بن خارج القرشي وعبد الرحمن بن معاوية بن حُدَيج. وخارجه ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح ولابد أن اتسع ذلك فيما بعد. مع كثرة هجرة العرب. ومع اختلاطهم بالبط. مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكي يحسنوا التفاهم معهم. وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك، فقد كانت منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية. وكانت تصلهم رسائل من الدواوين ويُضْطرون للرد عليها، فاضطروا لتعلم العربية، واضطرهم إلى ذلك أيضاً النظام القضائي، فكان القبطي المدعى في قضية أو المتهم في حاجة إلى معرفة شيء من العربية. وكان ذلك عمل على ذبول القبطية، ولكن غير صحيح أنهم أخذت في الزوال من لسان البط بعد نحو رن من الفتح العربي كما زعم رونود وبعض الباحثين فقد ظلت حية، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما رواه لمؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد لفتح بنحو قرنين كان ينزل في قرية مصر وضياعها ويستمع إلى القبط وما قد يكون لديهم من شكوى، والتراجمة بين يديه يترجمون ما يقولونه بالقبطية (٤٣٣). ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم، فيأمر كَيْدر وإليه على مصر أن يقطع عطاء العرب

---

(٤٣٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم (طبعة ماسيه).

(٤٣٣) خطط المقريزى ١/ ١٤١.

من الديوان (٤٣٤). وكان ذلك بدءًا حقيقياً لتعرب مصر، فإذا كان من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب، فأخذوا يشاركونهم في الزراعة، وهى مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحوف الشرقي في أواخر العصر الأموي، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم يد من هذه المشاركة لا في الزراعة وحدها بل أيضاً في التجارة والصناعة. وبذلك أصبح العرب في مصر جميعا مصريين، يشاركون القبط في حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة، وكان ذلك إيذاناً بأن يتم تعرب مصر نهائياً، وأن تأخذ القبطية في الزوال والإمَّحاء من السنة القبط في الريف والقُرَى وتحل محلها العربية في جميع الألسنة.

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسب كثرة من اعتنقوا الإسلام من البط حتى ليقول بتلر: "إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمر أعج من أن البط انقسموا قسمين: قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام، والقسم الآخر بقى على دينه"(٤٣٥). وهو يريد بامتزاج اقسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك، ولا عجب، لأنه يعرف السبب، كما مر بنا، وهو سماحة الإسلام والمساواة في الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الحنيف بين الطرفين من أخوة وثيقة. والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه، أقبلوا على تعلم العربية، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام. ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون تترجم لهم كتبُ التاريخ في الفقه والشريعة من مثل يزيد بن أبى حبيب

---

(٤٣٤) الولاة والقضاة الكندى (طبعة جيست) ص١٩٣ والمقريزى ١/ ١٧٣.

(٤٣٥) بتلر ص ٤٢٥.

الذي أقامه عمر بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجري للفُتيا ين النـاس، وقـد ذكرناه في الفصل الماضى. كما ذكرنا من كبار القراء بمصر وَرْشا، وهو أيضاً مـن سـلالة القبط. وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته. ولا نلبث أن نلتقي بعـد ورش بـذي مـن النون المصري الإخميمي وله فضل تأسيس التصوف في العالم الإسلامي. وهذه الأسـماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هي رموز فقط. ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفذاذ العلماء في كل فن.

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا في الإسلام من القـبط. فقـد أخذت العربية تشيع على ألسنة كثيرين مـن القـبط أنفسهم، ويبـدو أن كثـيرين مـن الرهبان عنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصبغ بن عبد العزيز بـن مروان في أثناء ولاية أبيه على مصر يـترجم لـه فـصلواً مـن الإنجيـل ويـشرحها (٤٣٦) وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية، حتى ليرسل خالـد بـن يزيـد بن معاوية- كما مر بنا في الفصل الماضى- يطلب جماعة مـنهم لينقلـوا لـه بعـض كتـب الكيمياء والطب، وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب أبن أبجر، وأسلم على يده، وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طبية. ومـر بنـا أيـضاً أن الدوميلي ذكر كتابين في الكيمياء ألفهما عـالم مـصري أو علـماء لأوائـل القـرن الثالـث الهجري، وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية، كما دل عـلى ذلـك

(٤٣٦) انظر سير الآباء البطاركة لاسقف الأشمونين ساويرس ابن المقفع (بعض أجـزاء منـه طبـع بـاريس) ص٢٤.

ترجمته (٤٣٧) في طبقات ابن أبى أصيبعة. ونلتقي بعده بسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية (٣٢١- ٣٢٨هـ) وقد ذكرنا في الفصل الماضى له كتابا بالعربية في تاريخ البطاركة والخلفاء. كذر له ابن أبى أصبيعة كتابا في الطب بالعربية. وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها عرب أو كادت في القرن الثالث الهجري، يدل على ذلك إننا نجد ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطي واليوناني في مصر. وليس معنى ذلك أن القبطية طردت نهائياً من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها، بل معناه أنها أخذت في الزوال وحلت محلها في ألسنة القبط العربية وخاصة في لغة التخاطب اليومي، أما هي فانحازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة في الصحراء والصعيد. من ذلك ما يذكره المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى أديرة درنكة (٤٣٨) بالقرب من أسيوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية، وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية. على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى بعض الأديرة النائية، أما الكتلة القبطية فإنها تعربت- كما قدمنا- مبكرة منذ القرن الثالث الهجري.

---

(٤٣٧) راجع عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص٥٤١.

(٤٣٨) الخطط ٣/ ٥٦١.

٢

كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدوداً زمن الأمويين. وقد يرجع ذلك إلى أن اكر الفاتحين لمصر كانوا يمنية، والشعر لا ينشط على ألسنة اليمنيين نشاطه على ألسنة المصريين والقيسيين. على أن القبائل القيسية والمضرية أخذت جموعها تنزل في مصر طوال الحقب الأموية. ولذلك ربما كان أولى من هذا التعليل لضعف الشعر بمصر حينئذ أن ما نظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله، ولوا ما سجله منه الكندي في كتاب الولاة والقضاة وان عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمقريزي في الخطط لظل مجهولاً لنا تماما. على أن ما سجلوه قليل، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية. وهو شعر في جملته متوسطة، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبي زمزمة، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته. وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليه (٦٥-٨٦هـ) فقد كانت جواداً ممدحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون، منهم جميل صاحب بثينة وكثيرٌ صاحب عزة وعبد الله بن الحجاج التغلبي وأيمن بن خُرَيم. وممن جذبه جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بعيدة (٤٣٩) ويصف في إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نيلية من الفسطاط إلى حلوان وأهم شاعر حجازي امتدحه ولزمه نُصَيْب وكان مُسْتَرَّقا

---

(٤٣٩) انظر ترجمته فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص٢٧٥ وكذلك فى كتابنا العصر الإسلامي (الطبعة التابعة) ص٢٩٩.

لكناني، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أعجب به إعجابا شديداً، ورد إليه حريته مما أثر في نفسه آثاراً عميقة، وأخذ يوالى نائله الغمر عليه، وهو يوالى مديحه مديحا رائعاً، وله ترجمة في كتابنا العصر (٤٤٠) الإسلامي. وفي كتاب الأغاني تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز، وما أضفي عليهم من النوار وأضيفوا عليه من المديح.

ونمضى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضاتهم المتعاقبين على مصر. وتلقانا في كتاب الولاة والقضاة أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو يمدحهم، ويصور ذلك إسحاق بن معاذ في مديحه للمفضل بن فضالة الذي ولى قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة، وعاد فهجاه (٤٤١)، كما يصوره يحيى الخولاني في هجائه لعبد الرحمن العمري الذي ولى قضاء مصر في أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما أتخذ من الشهود ورضاه بانتساب بعض المصريين في سلالة الأقباط في العرب، وهجاه أيضاً بشغفه بالغناء وقبوله- فيما زعم- للرشوة (٤٤٢). وفي هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادي المعروف قاصدا الخصيب بن عبد الحميد متولي الخراج (٤٤٣) بها حوالي سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائعة، ومدحته الرائية له: (أجارة بيتنا أبوك يور) مشهورة. وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عُفَير والمعلَّى الطائي،

---

(٤٤٠) العصر الإسلامي ص٢٢٣.

(٤٤١) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٧٩، ٣٨٦.

(٤٤٢) الكندى ص ٣٩٦، ٣٩٩، ٤٠٠-٤٠٣، ٤١٣، ٤١٤.

(٤٤٣) خطط المقريزى ١/ ٣٨٥ وانظر ترجمته فى كتابنا العصر العباسي الأول (الطبعة الثامنة) ص٢٢٤، ٢٢٨.

ولسعيد أشعار في الولاة والقضاء للكندي تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتي ١٦٨ و٢٠٩. والمعلى الطائي- بدون ريب- أشعر منه، وأشعاره عند الكندي تتردى بين سنتي ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ان سعيد في سم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا في هجاء القاضي العمري يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسماع الغناء، وله مرثية رائعة لجارية له اختطفها منه اقدر كانت تسمى "وَصْفًا" وفيا يقول (٤٤٤):

يا موت كيف سلبتني وَصْفا ... قدمتَها وتركتني خَلْفا

وأخذت شِقَّ النفس من بدني ... فقَبرْتَهُ وتركت لي النِّصْفا

ونراه يتصلب الولاة ويمدحهم واحد تلو الآخر، وممن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ولى مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة (٤٤٥)

يا أعظم الناس عفًوا عند مقدرةٍ ... وأظلمَ الناس عند الجود للمالِ

لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهبا ... لما أشرتَ إلى حَزْنٍ بمثالِ

ونزل مصر أبو تمام في بواكير حياته، ويبدو أنه نزلها مرتين: مرة قاصدا عباس بن لهيعة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج لواليها المطلب الخزاعي بأخرة من القرن الثاني، ومرة ثانية حين وليها عبد الله بن طاهر قاصداً له بالمدح، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التي أنشدها الكندي في مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره في رثاء عمير بن الوليد الوالي بعده. ويبدو أن صداقة انعقدت بينه

---

(٤٤٤) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف) ٣/ ٢٧٩.

(٤٤٥) الأغاني (طبع دار الكتب) ١٢/ ١٠٢.

وبين المعلى الطائي وابنه حِطَّان. إذ نجده ينشد في ديوان الحماة قطعة بديعة لِحطَّان يصور فيها عاطفة الأبوة الرحمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله (٤٤٦):

وإنما أولادُنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرْضِ

وهو بجانب من التعاطف الحميم في الأسرة المصرية سنلتقي به مراراً عند الشعراء المصرين. وأهم شاعرين مصريين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ذو النون المصري الأخميمي مؤسس التصوف الإسلامي المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة، والشاعر الثاني الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة، وفيه يقول ياقوت: "كان شاعرًا مفلقًا مدح الخلفاء والأمراء" ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله.

ومرَّ بنا أن أحمد بن طولون ولى إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية، وقد أخذ ينهض بعمرانها فأنشأ قصرا ضخما، كما مر بنا في غير هذا الموضع، والحق به ميدانا فسيحا للعب الكرة. وأنشأ خماوريه ابنه بعده بستانا كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل. ومر بنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت. وعُنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خمارويه بالشعر والشعراء فأسبغا عليهم العطايا وأسبغ عليها الشعراء مدائح كثيرة. ولعي ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يندبون دولتهم حين أزالها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة، ويذكر ابن تغرى بردى منهم إسماعيل بن أبى هاشم وسعيد القاضي الملقب بقاضي البقر ومحمد بن طَشْوَيْه وأحمد بن أسحق (٤٤٧)،

---

(٤٤٦) الحماسة لأبى تمام بشرح المرزوق (طبع لجنة التأليف) ١/ ٢٨٥.

(٤٤٧) النجوم الزاهرة ٣/ ١٤٠ وما بعدها.

ويقول المقريزي: رأيت كتابا قدر أثنتي عشرة كراسة مضمنة فرستًا بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية" ويعلق على ذلك بقوله: "فإذا كانت أسماء الشعراء في اثني عشر كراسة فكم يكون شعرهم؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد"(٤٤٨). وفي هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ، ومما يدل على ذلك أيضاً أن نرى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتابا في أخبار شعراء مصر (٤٤٩) فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية، ومنذ أخذ تعريف مصر يتكامل كما أسلفنا. ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى المَرْيمي شاعر خمارويه، وله مدائح فيه وأشعار في وصف السن والخيل والصيد. وللبحتري مدائح مختلفة في خمارويه وأبيه احمد بن طولون، ويذكر ابن تغرى بردي أنه زار مصر لمديح خمارويه (٤٥٠) وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقيهما في الشام، فقد كانت تتبعهما، وكانا ينزلان بها كثيرا، ومر بنا في الفصل الماضى أن خمارويه قتل بدمشق على يد غلمانه. ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى سنة ٢٩٣ وكان من الشعراء المجيدين، ويقول ابن خلكان أنه يعد في طبقة ابن الرومي والبحتري ونظرائهما (٤٥١)، وقد ترجمنا له في كتابنا العصر العباسي الثاني، وأنشدنا له بعض أشعاره في جوارح الصيد وآلاته، وله فيها أشعار بديعة كثيرة،

---

(٤٤٨) الخطط ١/ ٦١٢.

(٤٤٩) معجم الأدباء ٢/ ٤١٥.

(٤٥٠) النجوم الزاهرة ٣/ ٩٧.

(٤٥١) انظر فيه ابن خلكان ٣/ ٩١ وراجع ترجمته فى العصر العباسى الثاني (الطبعة الرابعة) ص ٤٩٣.

وأنشدنا أيضاً أشعاراً له رائعة في الغزل تملأ النفس إعجابا. وكانت له قصيدة من الشعر التعليمي تتناول فنونا من العلم في نحو أربعة آلاف بيت، وقصيدة تاريخية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدي في الشعر وفضله. وبدون شك التف حوله كثير من المصرين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه آثر المقام بينهم إلى مماته. ونزل مصر مثله منصور (٤٥٢) بن إسماعيل الفقيه المشهور بمقاطعاته في الزهد. ويدور بنا الزمن دورة وتظل مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ) ويظل الشعر ناشطاً في أيامها، ويترجم الثعالبي في كتابه اليتيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكتمي وعبيد الله بن أبى الجوع والحسن بن ممد الشهواجي وصالح بن رشدين وابن أبى العصام وابن طباطبا الحسنى الرسى (٤٥٣). ونزل مصر في عهد كافور المتنبي، كما مر بنا في الفصل الماضى، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة، وكان ابن رشيدين وابن أبى الجوع من كبار المعجبين به فعنيا برواية شعره، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر. وممن نزلها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله في أديرتها شعر كثير. ونزلها أيضاً في زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وزيره ابن حنزابة (٤٥٤).

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان، تتحول فيهما مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى

---

(٤٥٢) انظر منصور الفقيه فى المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٢.

(٤٥٣) اليتيمة ١/ ٣٨٧ وما بعدها.

(٤٥٤) معجم الأدباء ١/ ٣٣٢.

الفرات شرقا واليمن جنوبا، وقد جاءها المعز أو خلفائها الفاطميين وبرفقته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانئ الأندلس، ومعه انه تميم الشاعر الشاب الفذ، وكان المعز نفسه شاعرا، روى ابن تغرى بردى بعض شعره (٤٥٥)، وكان ابنه العزيز نزار الذي ولى الخلافة الفاطمية بعده أيضاً شاعراً (٤٥٦) وكذلك كان الحاكم (٤٥٧) والمستنصر (٤٥٨)، فطبيعي أن يبعثوا نهضة شعرية في البلاد، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية، وقصدهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا. وكان يصنع صنيعهم وزير المعز والعزيز: يعقوب بن كأس، وكان يهودياً وأسلم، ودبَّر دولتهما تدبيرا جيداً ومهد لهما قواعد الدولة، وكان الشاعر يترددون عليه ينشدونه المدائح، ولعل مما يدل على كثرتهم حينئذ أننا نجد الذهبي وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفي سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر (٤٥٩). ولابد أن من رثوا المعز وابنه العزيز كانوا أيضاً كثيرين، فضلاً عمن كانوا ينثرون عليهما أشعار المديح. غير أن ينبغي أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقييد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة في التشيع المنحرف، كما مر بنا في غير هذا الموضع. فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياساً لمدى نشاط الشعر في مصر، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر.

---

(٤٥٥) النجوم الزاهرة ٤/ ٧٩

(٤٥٦) النجوم الزاهرة ٤/ ١١٣

(٤٥٧) النجوم الزاهرة ٤/ ١٩٦

(٤٥٨) المصدر نفسه ٥/ ٨١.

(٤٥٩) النجوم الزاهرة ٤/ ١٥٨.

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمي الآمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وجدنا خبرا مهما يسوقه المقريزي عنه إذا يذكر أنه بنى ببركة الحش منظرة بها طاقات صُوّر فيها جميع الشعراء، كل شاعر واسمه وبلده، وعلى جان كل طاقة قطعة قماش كتب عليها عند رأس كل شاعرا قطعة ن مدحه، وبجانب صورة كل شاعر رف مذهب. فلما دخل المنظر وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده (٤٦٠) وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالي شاعرا، وروى أبن ميسر في أخبار مصر بعض شعره، وكان يجزل العطاء للشعراء. فمدحه كثيرون منهم. ويعرض أمية بن أبى الصلت في رسالته المصرية أسماء طائفة من مداحه وبعض مدائحهم ويلم ببعض من هجوه وهجائهم. ويسمى العماد الأصبهاني في القسم المصري من كتابه الخريدة أسماء طائفة من شعرائه. وكان الوزير طلائع بن رُزّيك بأخرة من العصر الفاطمي شاعراً، والتف حوله كثير من الشعراء، وخصّهم شاعرة الجليس بن الحَباب بمصنف نقل من العماد الأصبهاني تراجم طائفة منهم، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب في شعراء مصر في العهد الفاطمي سماه "جِنَان الجَنان ورياض الأذهان" وهو مفقود، غير أن العمد الأصبهاني انتفع بتراجمه، وبالمثل ان سعيد في كتاب المغرب. ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء الناهين في البلاد العربية أمثال أبى الرقعمق الأنطاكي وصريع الدلاء البغدادي والتهامي المكي وابن حَيّوس الدمشقي وأميه بن أبى الصلت الأندلسي المار ذكره آنفا.

---

(٤٦٠) الخطط ٢/ ٢٦٨.

ويظل نشاط الشعر المصري في زمن الأيوبيين بل يزداد نشاط على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البدائة لعلى بن ظافر الأزدي، وهو يسجل الأشعار التي كان ينظمها الشعراء في مجالسهم على البديهة. ونلتقي هذه المجالس في كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعا طريفا لنظم أشعار على البديهة دون بطء ودون أناة كأن ينضمون في بعض الأزهار إذا كان مجلسهم في حديقة أو ينموا في فانوس السحور برمضان إذا كان مجلسهم في ليلة من لياليه، ونحس في هذا الكتاب كأن الشعر كان على لسان. ومن الأدلة على ازدهار الشعر في أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العماد في خريدته يخصُّ مصر بمجلدين ترجم فيهما لمائة وأربعين شاعرًا. وكان القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية مثل طلائع بن رُزِّيك والأفضل بن بدر الجمالي في الدولة الفاطمية ممدحاً. والتف حوله عشرات من الشعراء، وكان بدوره شاعراً كبيرا. وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء في مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكد يبقى شاعرا نابه إلى قصده مادحا كما يقول ابن خلكان (٤٦١). ونرى أفضل ابن راجي الله العطار المصري يقدم لابنه سلطان مر بعده العزيز (٥٨٩-٥٩٥هت) كتابا في شعراء مصر لزمنه سماه "الشعراء العصرية بالديار المصرية"(٤٦٢). ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على ن سعيد الأندلسي كما يفد عليها ابن العديم عم حلب لزمنه وبصحبه معه إلى بلدته، وفيها يكتب له بيان سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلدانها في

---

(٤٦١) ابن خلكان (نشر دار الثقافة ببيروت) ٧/ ٢١١.

(٤٦٢) المغرب: قسم القاهرة (طبع دار الكتب) ص٣٢٤.

الوجهين البحري والقبلي، وقد اشتركتُ في نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها، ونُشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضاً شعراء أيوبيون كثيرون.

وتُعنى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والمماليك، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي والوافي بالوفيات للصفدي وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر وكتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتابي السلوك والخطط للمقريزي وكتاب بدائع الزهور لابن إياس. ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمماليك إلا وله ديوان مطبوع فدق طبعت دواوين القاضي الفضل وابن سناء الملك وابن النبيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيري والقيراطي وابن نباته وغيرهم. بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل تميم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيلي والمؤيد الشيرازي وظافر الحداد وطلائع بن رزيك وابن قلاقس.

ويظل لمصر نشاطها الشعري زمن العثمانيين. ويؤلف شهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا في شعراء زمنه سماه "ريحانة الألبا" خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيَّل على الريحانة المحبي المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه "نفحة الريحانة" جعل لشعراء مصر قسا كبيراً منه، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المدني المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه "سلافة العصر" ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه. وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين في شذرات الذهب للعماد وهو لا يتجاوز

بتراجمه القرن العاشر. ونلتقي بطائفة منهم عند المحبى في كتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر وكذلك عند المرادي المتوفى سنة ١٢٠٦ في كتابه "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" وأهم منه ومن العماد تاريخ الجبرتي، وهو يعنى في الجزءين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثاني عشر أي حتى نهاية أيام العثمانيين.

obeikandl.com

٣

شعر دوري ورباعيات وموشحات وبديعيات

(أ) الشعر الدوري

ذكرنا كتاب العصر العباسي الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد في الأوزان، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد في القوافي أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعري المعروف باسم المزدوج. وقد خصوا به منظومات الشعر التعليمي، وفيه تتحد القافية في كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت، وإنما أصبحت الشطر. ويكثر بمر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية، وكادوا لا يتركون عملا دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة وأكثروا من ذلك في النحو واللغة والقراءات، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة. ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٣ للهجرة في وصف فصول السنة، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار، كل دور بيتان تتحد شطورهما في القافية افتتحها بهذا الدور[٤٦٣]:

رسالةً من كَلِفٍ عميدِ ... حياتُهُ في قبضة الصدودِ

بلَّغه الشوقُ مدى المجهودِ ... ما فوقَ ما يلقاه من مزيدِ

---

(٤٦٣) اليتيمة ١/ ٣٥٦.

وتلاه بأربعة وأربعين دورًا. وقد كثر هذا النظام الدوري المكونة من بيتين بيتين، وشاع خاص في العصر الحديث إلى اليوم.

ونظام دوري ثان هو المسمَّطات شارع مبكرًا وعرضنا له في كتاب العصر العباسي الأول واستشهدنا له بمسمطين لأبى نواس، أحدهما من أربعة شطور والثاني من خمسة. والمسمط مشتق من السَّمْط وهو قلادة تلتقي فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة، وكل دور في المسمط كأنه سلك يلتقي مع الأدوار أو الإسلام الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور، وكأنها الجوهرة التي تتجمع عندها الأسلاك. وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها وتتغير من دور إلى دور. وممن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة المعز الفاطمي وكان شاعراً مجيداً. ومن مسمطاته مخمَّس مدح به أخاه العزيز استهله على هذا النمط (٤٦٤):

دَمُ العُشَّاقِ مطلولُ ودَيْنُ الصَّبِّ ممطولُ (٤٦٥)

وسَيْفُ اللحظ مسلولُ ومُبْدِى ومُعْدِى الحبِّ معذولُ

وإذن لم يُصْغِ للائم

ويتولى بعد هذا الدور ثلاثون دورا على هذا الشاكلة، فالشطور الأربعة الأولى تتحد قافيتها، وقافية الشطر الخامس دائماً ميمية، وهى عمود المسمط وقطبه الذي يدور عليه. وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع، وتسمى مربعات

---

(٤٦٤) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع ونشر دار الكتب المصرية) ص٣٦٨.

(٤٦٥) مطلول: مهدر ولادية له.

وسداسيات وسباعيات. وأنشد العماد الأصبهاني مسمطاً سباعًّا (٤٦٦) لشاعر إسكندرية يسمى موسى بن على وأخذ الشعراء المصريون في العصور المتأخر يكثرون من هذه المسمطات وأولعوا بتسميط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهمزيته في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم. ويحصى بروكلمان من تخميسات البردة وتسبيعاتها وتتسيعاتها عشرات أكثر لمصريين.(٤٦٧)

وتظل المسمطات وخاصة المخمسات تلقانا أيام العثمانيين في كتب التراجم من مثل ريحانة الألبا ونفحة الريحانة وتاريخ الجبرتي. ولأبي السعود الشعراني المتوفى سنة ١٠٨٨ من خمِّس نبوي (٤٦٨):

يا حاديَ العيس إن حَفَّتْ بك ... الْحَقْ- هديتَ- بركبٍ ساقه الطَّرب

وقُلْ لصبّ غدا بالشوق يَنْتَحِبُ ... لمهبطِ الوَحْيِ حَقّا تَرْحَلُ النُجُبُ

وعند هذا المرجَّى ينتهي الطلبُ

وتستمر في المخمس قافية الشطر الخامس في الشطور الخامسة من الأدوار التالية بائية على نحو ما قدمنا في قاعدة نظمه.

---

(٤٦٦) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ١١٣.

(٤٦٧) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٥/ ٩١.

(٤٦٨) نفحة الريحانة للمحبى (طبعة الحلبى ـ تحقيق عبد الفتاح الحلو) ٤/ ٥٣٨.

(ب) الرباعيات

مَّر بنا في كتاب العصر العباسي الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى العتاهية. والرباعية أربعة شهور من الشعر تؤلف بيتين، تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة في القافية، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد لا يتحد. ولم يكن شعراء العصرين: عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يكثرون من استخدامها مع تسميتها باسم "دوبيت" أي بينت. ويشكرهم شعراء العرب في ذلك، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما: "فَعْلن فعلن مُسْتَفْعلن مستفعلن" و"فَعْلُن مُتَفاعلن فَعُولُنْ فَعْلُنْ" على نحو ما صورنا ذلك في حدثنا عن الرباعيات في قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة، وما نمضى في زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء يكثرون من الرباعيات، من مثل قول ابن مَمَّاتي(٤٦٩):

يا غُصْنُ أراك حاملا عود أراكْ ... حاشاك إلى السواك يحتاج سِوَاكْ
قُلْ لي أنهاك عنْ مجيئك نُهاك ... لو تمَّ وَفاك بُسْتُ خَدَّيك وفاكْ

وممن نظموا فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم، ويقول ابن سعيد الأندلسي الذي زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا: "كثير من أهل القاهرة من يقول الدوبْيت" أو الرباعيات. . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدنيه لنفسه ابن أبى الإصبع:

قبَّلت ثنايا كُجمان لعقْدِ ... منهُ وعدلتُ عن نُضار الخدِّ

---

(٤٦٩) معجم الأدباء ٦/ ١٢٤ ولاأرك شجر يتخذ منه السواك، وفاك أى فمك، وسمى صاحبته غصنا لاستواء قامتها والنهى: العقل.

نادى ماذا؟ فقلتُ: طَبعٌ عربي يشتاق أقاحَ الروض دون الوِرْد"(٤٧٠)

ويُسهم في نظم الرباعيات أصحا الشعر الصوفي وفي مقدمتهم ابن الفارض، وله رباعيات تفوح بوجد مبرَّح من مثل قوله:

روحي لك يا زائرُ في الليل فِدَا يا مُؤْنسَ وَحْشَتي إذا الليل هَدَا

إن كان فراقُنا معَ الصبح بَدَا لا أسْفَرَ بعد ذاك صَبْحٌ ابداً

فهو يبذل روحه لمحبوبه الربَّاني مخلصاً صادقًا، ويتمنى أن يظل نوره يضيء دُجاه وان لا يسفر عليه صباح ولا تتفلت أضواؤه من الأفق إن كانت لحظات التجلي تنقطع مع النهار أنواره.

وتظل الرباعيات حية في أيام العثمانيين، وكانت تستخدم أحياناً في المديح النبوي كقول الشهاب الخفاجي صاحب ريحانة الألبَّا (٤٧١):

ما جُرَّ لظلِّ أمدٍ أذيالُ في الأرض كرامةً كما قد قالوا

هذا عجبٌ ويا لَهُ من عجبِ والناس بظلِّه جميعا قالوا

وهو يشير في الرباعية إلى ما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحاني، والنور لا ظل له. وفي البيتين تورية واضحة في كلمة قالوا، فالأول في البيتين القول والثاني من القيلولة بمعنى استظلوا ونعموا.

---

(٤٧٠) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وفيه: نادانى.

(٤٧١) ريحانة الألبا (نشر مكتبة الحلبى ـ تحقيق عبد الفتاح الحلو) ١/ ٥١.

(ج) الموشحات

في أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المستشرقين الأسبان إلى أنها فن أندلسي خالص نشأ من أغان أسبانية أعجمية. ويذهب باحثون آخرون من المستشرقين غير الأسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرقي (٤٧٢) وفي رأي أنها فعلا تطورات عن شعرنا المشرقي وبالذات عن المسطمات والمخمسات، أليست تتكون في أدوار مثلها وغاية ما هو الأمر أن الشطر الأخير في دور المسمط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور، ويسمى قفلا. ويشهد لذلك نفوذ ديك الجن المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة (٤٧٣)، وكأنما أطلع عليه بعده بعض شعراء الأندلس، وأخذوا في محاكاتها واتسعوا في هذه المحاكاة، بحيث أخذت الموشحة عندهم صورًا كثيرة، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهملة، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم، وكأنهم هم الذين صاغوا وأهدوها إلى الشعر العربي وشعرائه في أقاليمه المختلفة. ومعروف أو الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك، ومن شطور تسمى قُفْلاً، ومن خَرْجه وتطلق على القفل الأخير.

---

(٤٧٢) فن التوشيح للدكتور مصطفى عوض الكريم (طبع ونشر دار الثقافة ـ بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها.

(٤٧٣) انظر فى هذه الموشحة المبكرة كتابنا العصر العباسي الأول ص١٩٩ وقسم الشام من هذا الكتاب ص٦١٤.

وتتحد شطور الأقفال دائما في قوافيها المتقابلة في الموشح كله، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى عن مثلها في ذلك مثل أدوار المسمطات.

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نموذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النمط الأندلسي وبين المسمط الشرقي المشرقي، وهى لعلى بن عياد الإسكندري المتوفى سنة ٥٢٦، فقد روى له العماد موشحة على هذا النمط (٤٧٤):

يا مَنْ ألوذ بظِلِّهِ ... في كل خَطْبٍ معضلِ

لازلتُ من أصحابِهِ ... متمسِّكا بيد السلامة

آمنا من كل باسِ ... في الحوادث والصّروفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية، وبذلك اتخذ منها ابن عياد قفلا لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحدِّون قوافي الشطور في الأقفال، بينما ينوعون في قوافي الأدوار كما ينوع أصحاب المسمطات. وعادة يبتدئ الوشاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور، وقد يبتدئ بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة. ولظافر الحداد مواطن ابن عياد المتوفى سنة ٥٢٩ موشحة طريقة يحتفظ بها ديوانه (٤٧٥).

---

(٤٧٤) الخريدة للعماد (قسم شعراء مصر ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/ ٤٤.

(٤٧٥) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة مصر) ص٣٣٧.

وكان طبيعيًّا ان يتعرف المشارقة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم في الإسكندرية والقاهرة من الأندلس، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا ينشدونهم موشحات مختلفة، وممن لا نشك في أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين: إسكندريين وقاهريين أو الصلت أمية بن عبد العزيز، وفيه يقول ابن سعيد: "كان منشئا للمنثور والمنظوم" وأقام بمصر عشرين سنة، وصنَّف في الألحان وعنه أخذها أهل إفريقية (٤٧٦)، ولابد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم، وقد توفي سنة ٥٢٩. ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع عبده في عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب (٤٧٧)، ولابد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات. ونزلها أيضاً حكيم الزمان عبد المنعم الجيلاني الأندلسي (٤٧٨)، ومدح صلاح الدين الأيوبي مدائح كثيرة، وكان له عشرة دواوين ثامنها يشتمل على موشحاته. ومرَّ بنا ذكر معجم السلفي محدث الإسكندرية وقد سجل فيه لبعض من تتلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشدوه من الموشحات الأندلسية.

وهذه كلها إنما هي إشارات قاصرة إلى ما حدث في القرن السادس الهجري بمصر من انتشار الموشحات بها انتشاراً هيأ لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ ويحدثنا العماد الأصبهاني عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعرتيه وينشد

---

(٤٧٦) المغرب (القسم الأندلسى ـ طبع دار المعارف) ١/ ٢٦١ وما بعدها.

(٤٧٧) نفس المصادر ٢/ ٨٨.

(٤٧٨) فوات الوفيات ٢/ ٣٥ وطبقات الأطباء لابن أبى اصيبعة ص ٦٣٠.

موشحة مبكرة له (٤٧٩). وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحا مصريا ممتازا، بل لما هو أبعد من ذلك: ليضع عروض الموشحات ونظاما كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربي ونظامه، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: "دار الطراز" الذي ألفه في عهد السلطان الأفضل (٤٨٠) بن صلاح الدين (٥٩٥-٥٩٦هـ) وقد استهله بمبحث واسع في الموشحات وأقفالها وعدد شطورها وأنها تتردد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات ى الأقرع (٤٨١) وقد تصل الأقفال إلى أحد عشر جزءاً (٤٨٢).

ويقول عن الخرجة، وهى القفل الأخير في الموشحة، هي "أبراز الموشح وملحه وسكّره" ومسكه وعنبره" ويقول إنه ينبغي أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة (٤٨٣) ويقول أيضاً إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجنة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسمان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم.، وقسم لا وزن له (٤٨٤)، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذي دار على ألسنة العلماء والشعراء. واختار ابن سناء الملك في كتابه للأندلسيين أربعًا

---

(٤٧٩) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/ ٦٧ وما بعدها

(٤٨٠) راجع مجلة الثقافة العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥١.

(٤٨١) راجع الطراز فى عمل الموشحات لابن سناء الملك تحقيق الدكتور جودة الركابى (طبع دمشق) ص٢٦.

(٤٨٢) انظر دار الطراز ص٩٧.

(٤٨٣) دار الطراز ص٣٢.

(٤٨٤) دار الطراز ص٣٣.

وثلاثين موشحة، واختار لنفسه خمسا وثلاثين، وله وراءها موشحات كثيرة إذ أنشد لـه أحمد السخاوي في كتابه: "سجع الوُرْق المنتحِبة في جميع الموشحات المنتخبة" أربعا وثمانين موشحة سوى ما أنشده النواجي في كتابه: "عقود ألآل في الموشحات والأزجال".

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاقتها، وقصر الشطور، حتى تصبح نغما خالصا يلذ الأسماع والقلوب، وعرف ابن سنا الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لا تقل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله في مطلع موشحة رواها ابن سعيد (٤٨٥):

البَدْرُ يَحْكِيكْ لولا تَثَنِّيكْ
وأنت جنة (٤٨٦) الصديقْ لولا تَجَنِّيكْ
لم يلق نُعْمَى ونعيمْ مَنْ لَمْ يلاقكْ
حلمتني كل عظيمْ يوم فراقِكْ
وإن لي ذنبا قديمْ على عِناقكْ
بالضَّمِّ أجنيكْ للصدر أُدْنيكْ
لأن لي قلبًا رقيقْ (٤٨٧) عساه يُعْديك

(٤٨٥) المغرب (قسم القاهرة) ص٣٦٩.

(٤٨٦) جُنة: وقاية

(٤٨٧) فى الأصل رقيقا.

والكلمات تطير بخفة عن الفم لحلاوة جرسها وعذوبتها في النطق والسمع وجمال وعها في النفوس والأفئدة، وموشحاته في دار الطراز أنغام حلوة وصور بديعة، على نمط هذا الدور أو الغصن في إحدى موشحاته:

وَجْهُك يا أحسن البَرِيَّة ... قد جمع المِلْحَ والملاحَة

نرجسةٌ فيه مستحيَّه ... ووردةٌ تحتها أقاحَةْ

والخالُ في الوَجْنَةِ المُضِيَّة ... في الماء لا يُحْسن السِّباحه

وقد جمع في الدور أروع صورة للملاحة، فالعين ملأي بالخفر والحياء، والوه ورد ناضر، تحتها أقحوان الثغر المتلألئ والخال في الوجنة غارق في ماء النضارة والحسن لا يريم. وبذلك أعدَّ ابن سناء الملك المصريين بعده لكي يبرعوا برعة فائقة في نظم الموشحات، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر (٤٨٨) الأعمى العَيْلاني المتوفى سنة ٦٢٣ صاح الموشحة المشهورة:

كَلِّلي يا سُحْبُ ... تيجان الرُّبَى بالحُلِي

وأجْعَلِي سِوَارَها ... مُنْعَطَفَ الجَدْوَلِ

والموشحة تفيض بكئوس الفرحة بالخمر والحدث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبوب، بهجة ما بعدها هجة. وكان يعاصره ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفي ديوانه موشحة بديعة يقول فيها (٤٨٩):

---

(٤٨٨) انظر فيمظفر وموشحه المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٤٨، ٣٧٠ وراجع فيه معجم الأدباء ١٩/ ١٤ وفوات الوفيات ٢/ ١١١ ونكت اهيمان ٢٩٠ والشذرات ٥/ ١١٠.

(٤٨٩) ديوان ابن النبية (طبعة عبد الله فكرى) ص٥٤.

قل لمن يلومُ في مُهَفْهَفٍ أَسْمَرْ

ثغره النَّظِيمُ مُس~كِرٌ وسُكَّرْ

آو لو سقاني أطفأت نيراني دُرَّةٌ ثمينَةْ في الياقوت مكنونة

وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفئ نيران قلبه وأن ياقوت الشفتين يحمل درة بل دررًا ثمينه وهى كناية بديعة. ونمضى إلى زمن المماليك فنلتقي بكثير من الوشاحين، وفي مقدمتهم العَزازي وابن الوكيل. وظلت الموشحات مزدهرة في أيام المماليك على لسان ابن نباته وغيره(٤٩٠) وشاع استخدامها على لسان المتصوفة في أذكارهم، ولعلي بن محمد بن وفا شيخ الطريقة الوفائية في زمنه المتوفى سنة ٨٠٧ ديوان موشحات صوفية لا يزال مخطوطا، وأنشد منه السخاوي في سجع الورق المذكور آنفا خمسا وخمسين موشحة وخص كلا من العزازي وابن الوكيل بكلمة.

العَزازِىّ(٤٩١)

هو شهاب الدين العَزازي أحمد بن عبد الملك وكان تاجرا بقيسارية جهاركس في القاهرة قرب حي الغورية الحالي ويقول ابن تغرى بردى: كان أديبًا مطبوعًا ظريفًا له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمه للموشحات فإنه غاية في ذلك. ويقول ابن حجر: له في الموشحات يد طولي توفي سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة. وفي دار الكتب المصرية

---

(٤٩٠) انظر فهرس كتاب عقود اللآل فى الموشحات والأزجال للنواحى بتحقيق عبد اللطيف الشابي ولا بن نباته فيه تسع موشحات ولمجد الدين بن مكانس أربع موشحات.

(٤٩١) انظر فى العزازى المنهل الصافى ١/ ٣٤٠ وما بعدها والنجوم الزاهرة ٩/ ٢١٤ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ١/ ٨٨ والوافى ٧/ ١٥٢ والدرر لابن حجر ١/ ٢٠٥.

نسختان من ديوانه غير تامتين، والديوان في خمسة أقسام: في مدائح الرسول وأهل بيته وفي مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة، وفي النكت والملح والألغاز الأحاجي، وفي الغزل والتهاني والتعازي، وفيما وقع بين أداء عصره وشعراء زمانه، وفي غرائب الأوزان من المخمسات والموشحات. وفي مكتبة جامعة القاهرة مصَّورة منتخبة من ديوانه بخط الصفدي. ويذكر ان تغرى بردى بعض موشحاته، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاكر في فوات الوفيات والنواجي في عقود اللآل في الموشحات والأزجال، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب وبجمال الطبيعة أستهلها بقوله:

يا ليلةَ لوصلٍ وكأسَ العُقارْ دون استتارْ علَّمتماني كيف خَلْعُ العِذارْ(٤٩٢)

أغْتنم اللذاتِ قبلَ الذهابْ

وجُرَّ أَذْيالَ الصِّبا والشبابْ

واشربْ فقد طابت كئوسُ الشَّرابْ

وأختتمها بقوله:

يا ليلة أنعمَ فيها وزارْ شمسُ النَّهارْ حُيِّيتِ من ين الليالى القِصارْ

وله في مطلع موشحة بديعة:

ما سلّتِ الأعينُ الفواترْ من غِمْد أجْفانها الصِّفاحْ (٤٩٣)

---

(٤٩٢) خلع العذار: كتابه عن الإنهماك فى المجون.

(٤٩٣) الصفاح: السيوف.

إلا أسالتْ دِما المحاجرْ من غر حربٍ ولا كِفاح (٤٩٤)

ومن طريق موشحاته بناها من رباعيات، كما يقول ابن شاكر، وهي في الحقيقة مخمس رباعي، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقًا، مع الحلاوة وحسن الألفاظ وجمال النغم والإيقاع.

أبن الوكيل (٤٩٥)

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطي، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق، ونشأ بها، وتولى التدريس في غير مدرسة هناك، ثم انتقل إلى القاهرة، وُأسند إليه التدريس بها في زاوية الشافعي والمشهد الحسيني والمدرسة الناصرية إلى أن توفي سنة ٧١٦. ويقول السبكي: كان إماماً كبيراً بارعاً في مشهد الشافعي يضرب به المثل في البحث نظارًا مفرط الحريري وديوان المتنبي، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات. وكان له مشاركة في الشعر الشعبي: الزجل البلاليق التي تدور في الهزل. ومن قوله في إحدى موشحاته:

ما أخجلَ قَدَّه غصونَ البانِ بين الورقِ

إلا وسَبَا المهَا مع الغِزْلانِ حُسْنُ الحَدقِ

---

(٤٩٤) المحاجر: ما استدار حول العيون واردا بها العيون نفسها.

(٤٩٥) راجع ترجمة ابن الوكيل فى الفوات ٢/ ٥٠٠ والافى بالوفايت ٤/ ٤٦٤ والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٢ وشذرات الذهب ٦/ ٤٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ٢٣٤ وحسن المحاضرة ١/ ٤١٩ والبداية والنهاية ١٤/ ٨٠ وطبقات الشافعية للسبكى ٩/ ٢٥٣ والبدر الطالع ٢/ ٢٣٣ وعقود الآل فى الموشحات والأزجال للنواجى (انظر الفهرس) .

الصحة والسقام في مقلتهِ

والجنَّة والجحيمُ في وَجْنتِه

ما أبدع معنىً لاحَ في صورتِه

كالورد حواه ناعم الرَّيْحانِ بالطَّلِّ سُقِى

والقدُّ يميل مِيلةَ الأغصانِ للمعتنقِ

أحيا وأموت في هاه كمدَا

من مات جَوًى في حبِّه قد سَعِدا

يا عادلُ لا أترك وَجْدي أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل في هذه الموشحة وزن الرباعيات، ليدل على قدرته في ضبط النغم واللحن، وأنه لا يقل عن المحَار الحلبي معاصره الذي حاكاه فيها وفي وزنها إبداعًا وافتناناً.

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نوبة ابن زيدون المشهورة مضمنة في مطلعها وأقفالها كقوله في المطلع:

غدا مُنَادينا محكَّما فينا يَقْضى علينا الأسى لولا تأسِّينا

ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد أن الوكيل والعزازي، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ في كتاب التراجم عند الشهاب

الخفاجي وغيره، وتلقانا عند المحبي موشحة بديعة لزين العابدين البكري المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك، ومن قوله فيها [٤٩٦]:

أعجبوا من حُسْن تلوين تلكمُ حانَهُ وهاتيكم كِنانة

بأبي مُرَّ الجفَا بالدَّرِّ حالي

قَدْوُرهُ قد حطَّ من قده العَوالي

مطالبي من ثَغره كنزُ الآلي

والموشح يسيل عذوبة، وأنشد الجبرتي لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحًا [٤٩٧] عارض به موشحًا مشهورًا للسان الدين بن الخطيب.

البديعيات:

إذا تكرنا الموشحات إلى البديعيات وجدناها قديمة في الشعر المصري، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام، واستمع شعراؤها إلى ما في أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته، ولم يكن الشعراء المصريون يكثرون من استخدام تلك المحسنات والطرائف، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط، وظل ذلك دأبهم في الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ في شعر ابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٢. وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العَقيلي

---

(٤٩٦) نفحة الريحانة ٤/ ٥١٩ والكنانة: جعبة السهام أشار بها إلى سهام العيون. والعوالى: الرماح وتشبه بها قدود النساء فى الأستواء والاعتدال.

(٤٩٧) تاريخ الجبرتى ١/ ١٩٨.

شاعر الخمر والطبيعة، وشعره زاخر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة، ويتصنع في قلة لاستظار عض المصطلحات العلمية، ولكن ذلك كله لا يثقل عنده ولا نحس فيه بتكلف، ونجد عنده التورية التي اشتره بها المصريون في مثل قوله[٤٩٨]:

وشاعرٍ شعره فنونُ ... لكل بيتٍ له طَنينُ

تُسْخن عينَ العدوِّ من ... قصائدٌ كلُّها عيونُ

فقد ورَّى في كلمة عيون المقابلة لعين العدو وإنما يقصد بها أبيت الشاعر النفيسة.

وللتورية أمثلة أخرى في شعره ذكرناها في كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، ونجدها كثيرة عند الشعراء بعده، مما يدل على أن ظهورا بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضي الفاضل وأيام الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة[٤٩٩]. ومَنْ يرجع إلى القسم المصري من كتاب الخريدة للعماد الأصبهاني وما ترجم فيه من شعراء مصر في القرن السادس الهجري يلاحظ شيوع محسنات البديع على ألسنة شعراء القاهرة والإسكندرية، كقول ابن قلاقس في وصف مغن [٥٠٠]:

لا اشربُ الرَّاحَ إلا ... ما بين شادٍ وشادنْ

قُمْ يا نديمي فأنصتْ ... والليلَ داجٍ لداجِنْ

---

(٤٩٨) الغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٤٤.

(٤٩٩) الخزانة للحموى (طبعة بولاق) ص ٣٣٧ وما بعدها.

(٥٠٠) الخريدة للعماد الأصبهانى (قسم شعراء مصر) ١/ ١٦١.

طاوعْ على القصْفِ والعَزْ فِ كلَّ حاسٍ مُحَاسِنْ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها، فشادٍ أي مغن تسبق كلمة شادن أي غزال، وكلمة داج أي مظلم تسبق كلمة داجن أي مغن، وكلمة حاسٍ أي للشراب تسبق كل محاسن. وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه. وكانوا يكثرون في أشعارهم من الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول أبن هانئ الصغير في وصف سيف (٥٠١):

نرى التورية معانقة لجناس تام في قول ابن قادوس (٥٠٢):

لام العواذلُ مغرمًا في حبّ مُلْهِيَةٍ وقَيْنَهُ

ولو أنهنَّ رأينَ تأ ثيرَ الغرام به وَقَيْنَهْ

والتورية والجناس واضحان في كلمة "وقينه" المكررة في نهاية البيتين، والواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل: "وفى" وهى موضع التورية. وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظير في الصور والكلمات، واستخدموا في قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمى باسم التوجيه، وحتى الألغاز نجدها مبثوثة في أشعارهم. ويذكر العماد شاعرا من بينهم تسمى ابن مجبر كان يعنى يصنع الألغاز فيما يبدو عناية شديدة(٥٠٣):

---

(٥٠١) الخريدة ١/ ٢٧٨.

(٥٠٢) الخريدة ١/ ٢٣١.

(٥٠٣) الخريدة ٢/ ٢٣٠.

ويحمل لواء هذه البديعيات في زمن الدولة الأيوبية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الذي نشأ وتربى في الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين. ويجعله ابن حجة الحموي والصفدي إمام الشعراء في زمنه وبعد زمنه (٥٠٤) في استخدام المحسنات البديعية من تورية، ويقولان إنه سار في دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الأيوبية والمملوكية أمثال الجزار المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ ومحي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحمامي المتوفى سنة ٧١٢. ونستطيع أن نضم إلى ما سميناهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباته المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطي المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤. وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة. وجعلها النقاد القطبَ الذي تدور عليه كتاباتهم في ن الشعر، يتقدمهم في ذلك ابن أبى الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه في كتابه "تحرير التجبير".

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء. وتتضمنها قصائد في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم تسمى البديعيات وتشرح شروحاً مطولة، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطى أو بديعية سماها "نظم البديع في مدح خير شفيع" وله عليها شرح، وكانت تعاصره عائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتا. ويلاحظ ان استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر

---

(٥٠٤) انظر خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص٦٧ و٢٩٨.

للمحسنات لم يسمج ولم يثقل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوي عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجرى بها مياه النيل في أرضهم، بين كل لك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه. وقديما لاحظ ذلك ابن سعيد صاح كتاب المغرب حين نزل الفسطاط والقاهرة وأختلط بشعرائهم، إذا لم يلبث أن أنشد (٥٠٥):

أيا ساكني مصرٍ غَدَا النِّيلُ جارَكم ... فأكسبكم تلك الحلاوةَ في الشِّعْرِ

وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى ... سوى أثرٍ يبدو على النظم والنثرِ

وسنذكر نفثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة في تراجم الشعراء لتلك الأزمنة.

---

(٥٠٥) فوات الوفيات ١/ ٢٣٦.

شعراء المديح

يكتظ الشعر العربي في مصر بالمديح منذ زمن الولاية المبكر أيام الدولة الأموية، وخاصة في ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جوادا ممدَّحا، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق، ويظل شعر المديح يجرى على السنة الشعراء أيام الدولة العباسية، ويزور أبو نواس مصر لمدح وإلى الخراج بها: الخصيب، ويضفي عليه مدائح رائعة، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام، ويمدح عياش بن لهيعة الحضري القائم على الشرطة والخراج كما مر بنا، كما يمدح وإليها عبد الله بن طاهر. ومن أهم شعراء مصر حينئذ المعلى الطائي، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض مديحه في عبد الله بن طاهر وإلى مصر للمأمون. ويظلها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها في مديح أحمد بن طولون. وأهمهم في بواكير حكمه لمصر الحسن (٥٠٦) بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨، وله من قصيدة في مديحه:

له يَدٌ كم خَلَّدَتْ من يَدٍ ... سحابةٌ عَمَّتْ بأنْوائها

انظرْ إلى مصرٍ بسلطانِهِ ... تَرَ الهُدَى فاضَ بأرجائها

---

(٥٠٦) انظر فى ترجمة الجمل الأكبر معجم الأدباء لياقوت ١٠/ ١٢١ والمغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ٣٠ وله فى كتاب الولاة والقضاة للكندى أشعار متفرقة.

ومن شعراء الطولونيين المريمي (٥٠٧) الاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبى مريم السلوك أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو شاعر أبى الجيش خمارويه اختصَّ به وأسبغ عليه كثيرًا من نواله، وفيه يقول:

يقولون لي ما بالُ رَحْلك دائماً ... بمصرٍ وإنِّي لستُ عن غيرها أرْضَى

وكيف رحيلي عن بلادٍ غدا بها ... أبو الجَيْشِ والنِّيلُ الذي ملأ الأرضا

وتوفي المريمي سنة ٣١٦.

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مر بنا. وأطرد تكاثرهم في عهد الدولة الإخشيدية قد ملك مصر والشام وثغور الروم وخطب له بالحجاز واليمن. ولذلك يقول شاعره سعيد (٥٠٨) بن فار من قصيدة يمدحه بها:

يا ملكَ الشامِ ومصَر إلى ... أقصى ثغور الروم والشامِ

واليمنِ الأبعد لازال [مُلْـ ... ـكُكُمْ] رفيعًا قادرًا حامى

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبى المسك كافور الحبشي بتدبير الدولة لابنيه: أو نوجور وعلى، ويتوفى أولهما سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقيل سنة ٣٥٥. ويستقل كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده

---

(٥٠٧) راجع فى المريمى المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أشعارًا متفرقة له فى الولاة والقضاة للكندى فى أخبار خمارويه وفى مقالات عنه بمجلة المجلة: العدد ١٤٢ وبمجلة الكتاب العراقية سنة ١٩٧٤ فى عددى آب وتشرين الثاني.

(٥٠٨) انظر سعيدا (قضاى البقر) فى المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاص المذكور فى النجوم الزاهرة ٣/ ١٤١ بين ما رثوا الدولة الطولونية.

الأيمن في حكمه وزيره جعفر بن الرات المعروف باسم ابن جِنْزابة. وكان كافور ممدَّحا، فقصده الشعراء من كل فَجٍّ وفي مقدمتهم كُشاجم شاعر الشام، والمتنبي إمام الشعراء لزمنه وبعد زمنه كان أول ما أنشده يائيته، وفيها يقول:

قواصدُ كافورٍ توارك غيرِه ... ومَنْ قصَد البحَر استقلَّ السَّواقيا

وغَيْرُ كثيرٍ أنْ يزورَك راجلٌ ... فيرجعَ مَلْكا للعراقين واليا

وظل المتنبي نحو أربع سنوات ينتظر أن يوليه كافور على بعض بلدان الشام التابعة لمصر. حتى إذا نفد صبره ارتحل إلى العراق بليلٍ وهجاه هجاء مرا.

وتستقبل مصر سريعاً عهد الدولة الفاطمية، إذ ينزلها جوهر الصقلي ويؤس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمي، وتصبح القاهرة حاضرة لدولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث العز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز (٣٦٥-٣٨٦هـ) ويتخذ يعقوب بن كلّس وزيرا له، وكانا يجزلان العطاء للشعراء، مما جعل ألسنتهم تلهج بمديحهما، على شاكلة قول عبيد الله بن أبى الجوع في إحدى مدائحه(٥٠٩):

لولا العزيزُ وآراءُ الوزير معا ... تحيَّفتْنا خطوبٌ تَشْعَبُ الأمما

ولميم بن المعز في أبيه وأخيه العزيز مدائح طنانة، ونزل القاهرة في عهد المعز أبو الرقعمق الأنطاكي: أحمد بن محمد، وأقام بها زمانا طويلا حتى توفي سنة ٣٩٩ ويقول

---

(٥٠٩) راجع خطط المقريزى ٢/ ٢٩٦ وانظر فى ابن أبى الجوع اليتيمة ١/ ٣٩٥ ومر بنا حديث عنه. تشعب: تفرّق وتفسد.

ابن خلكان: "معظم شعره في ملوك مصر ورؤسائها: مدح بها المعز ووالده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهرا والوزير يعقوب بن كلّس وغيرهم من أعانها"(٥١٠) وينشد له قصيدة في مديح ابن كلس. وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنَّاجه الدوح شاعرا الحاكم، وأنشده في زلزلة حدثت بمصر في قصيدة في مديحه (٥١١):

بالحاكم العدلِ أضحى الدين معتليًا نجل العُلا وسليل السادةِ الصَّلَحا

ما زُلزلتْ مصرُ من كيدٍ يُراد بها لكنها رقصتْ من عَدْله فَرَحا

ويلي الحاكم ابنه الظاهر، وينزل مصر في أول عهده صريع (٥١٢) الدلاء البغدادي، ويمدحه ويخلقه المستنصر (٤٢٧-٤٨٧) ويعتلى الوزارة بدر الجمالي سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء. ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧-٥١٥هـ). وكان شاعرا كما كان ممدحا، بعث نهضة قوية في الشعر، وصفها- كما مر بنا- أمية بن أبى الصلت في رسالته المصرية، معددا فيها أسماء الشعراء في زمنه ممن مدحوه وهجوه جميعا، ومن كبار مُدَّاحه ظاهر الحداد وسنترجم له بين شعراء التشيع،

---

(٥١٠) ابن خلكان ١/ ١٣١ وما بعدها وانظر فى أبى الرقعمق اليتيمة ١/ ٣٢٦ والعبر ٣/ ٧٠ والشذرات ٣/ ١٥٥.

(٥١١) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر فى صناجة الدوح حسن المحاضرة ١/ ٦٢٥.

(٥١٢) انظر صريع الدلاء فى تتمة اليتيمة ١/ ١٤ وفيابن خلكان ٣/ ٣٨٣ والعبر ٣/ ١١٠ والشذرات ٣/ ١٩٧.

وحسن بن زيد الأنصاري وسنترجم له بيان الكتاب، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله[٥١٣]

أيامُك الغُرَّ مصقولٌ عوارضُها ... كأن آصالها من رِقَّةٍ بكَرُ

أخملن ذكرَ ملوكٍ كنت خاتمهم ... وأنجمُ الليل في الإصباح تَسْتَتِرُ

بعضُ الوَرَى أنتَ لكن فُقْتَهم شرفًا ... إن الحجارة منها الدرَّ والمدَرُ

تخال راحتَه والمشرفيُّ بها ... سحابةً ظلَّ فيها البَرْقُ يستعرُ

ولفظه جزل متين وصور بديعة، مما يدل على شاعرية خصبة. ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن رُزِّيك، وكان مثل الأفضل الجمالي راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضي الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد. وتزخر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع.

وكانت هناك مواسم كثيرة في زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء، في مقدمتها الأعياد وموالد الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام على ن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء وأبنيها الحسن والحسين والخليفة الذي بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء ووفاء النيل وما يقترن به من فتح الخليج. وفي كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة، وكان الشعراء يهنئون بها الخلفاء، وكل يحاول أن يكون له قصب السبق على أقرانه، ويصور لنا ذلك المقريزي من بعض الوجوه في احتفال بوفاء النيل سنة ٥١٧ لعهد الآمر (٤٩٥ – ٥٢٤هـ). إذ يذكر

---

(٥١٣) الخريدة للعاماد الأصبهانى (قسم شعراء مصر) ٢/ ٧١.

بعض الأشعار التي أنشِدَتْ وما كان يصحها من نقد بيديه بعض لمستعين، من ذلك (٥١٤) أن ابن جبر أنشد في هذا الاحتفال مدحة أستهلها بقوله:

فُتِحَ الخليجُ فسالَ منه الماءُ ... وعلتْ عليه الرايةُ البيضاءُ

فَصَفَتْ مَواردُه لنا فكأنه ... كفُّ الإمامِ فَعْرفُها الإعطاء

فانتقد عليه الناس قوله: "فسال منه الماء" قالوا أي شيء يخرج من النهر غير الماء،وبذلك ضيوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع. وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله:

لمن اتماعُ الخلقِ في ذا المَشْهَدِ ... للنِّيلِ أم لك يابنَ بنتِ محمَّدِ

فهلَّل الناس لمطلعه، فأمر له الخليفة الآمر على الفور بخمسين دينار وخُلع عليه وزِيدَ في جاريه. ومرَّ بنا حديث المنظرة التي بناها الآمر للشعراء ببركة الحش ورفوفها وما كان عليها من صُرَرٍ للشعراء وفي كل صُرَّة خمسون دينار جزاء وافقا لمديحهم، وكأن ذلك كان مكافأة معلومة لهم. ويخلفه الحفاظ (٥٢٤ – ٥٤٤هـ) ويبدو أن الشعراء كانوا يتمادون أيامه في تطويل مدائحهم، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرِّج ينشده في إحدى مدائحه (٥١٥):

أمرتنا أن نصوغَ المدحَ مختصرا ... لِمْ لا أمرتَ نَدَى كَفَّيْك يُخْتَصَرُ

والله لابُدَّ أن نُجْرِى سوابِقَنا ... حتى يبينَ لها في مَدْحك الأثر

فأمر الآمر بالعود إلى ما كانوا عليه.

---

(٥١٤) خطط المقريزى ٢/ ٢٥٣.

(٥١٥) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ٦٤.

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس، وأسسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة في طرابلس وثالثة في أنطاكية ورابعة في الرَّها، وبلغت مصر حينئذ من الضعف مبلغا بعيدًا لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة في عهد وزيرها طلائع بن رزِّيك، تجريدات لم تُعْن عنها شيئاً. وبينما اليأس يخيم على الناس إذا بعماد الدين زنكي يخلص الرها من أيديهم، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرما، ويتابع جهاده أبنُه نور الدين، ويستغيث به شاور في مصر ضد ضراغام فيرسل غليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وتتطور الظروف سريعا، فيُنهى صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر، ويقبض على صولجان الحكم، ويتوفى نور الدين، فيضم الشام تحت لوائه، ويأخذ في الانقضاض على الصليبيين، وكلما التقى بهم دمَّر جموعهم تدميرا، حتى كانت الموقعة الفاصلة: موقعة حِطِّين التي استولى فيها المسلمون على الصليب الأعظم: صليب الصلبوت، وأسروا قواد الصليبيين وزعمائهم ومزقوا جموعهم شر ممزق. ويقول المؤرخون إنهم أكثروا منهم في القتل والأسر حتى كان من يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشهد الأسر يظن أنه ليس وراءهم قتلى، ويقولون إنه من كثرة الأسرى أن كان الأسير منهم يباع في أسواق الرقيق بثلاثة دنانير، وفي هذا النصر العظيم أنشد العماد الأصبهاني صلاح الدين مدحه رائعة يقول فيها (٥١٦):

حططتَ على حَطّينَ قدرَ ملوكهم ... ولم تُبْق من أجناسِ كفرهمُ جِنْسَا

---

(٥١٦) الروضتين لأبى شامة ٢/ ٨٣.

بطونُ ذئاب الأرضِ صارتْ قبورَهم ولم تَرْضَ أرضٌ أن تكون لهم رَمْسا (٥١٧)

سبايا بلاد الله مملوءة بها وقد شُرِيتْ بَخْسًا وقد عُرضتْ نَخْسًا

يُطَافُ بها الأسواقُ لا راغبٌ لها لكثرتها كم كثرةٍ توجب الوَكْسا (٥١٩)

وفُتحت صلاح الدين بعد هذه المعرفة أبواب مدن كثيرة في فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل (بير سبع) ويسارية وحيفا وصَيْداء وبيروت. وتغنى الشعراء في مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين. وسرعان ماتلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس، وعمَّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية، وتغنَّى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر (٥٢٠):

أتُرَى منامًا ما بَعَيْني أَبْصِرُ القُدْسُ يُفْتَحُ والفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ

قد جاء نصرُ الله والفَتْحُ الذي وعدَ الرسولَ فسِّحبوا واستغفروا

فُتح الشَّامُ وطُهِّر القُدْسُ الذي هو في القيامة للأنام المحشَرُ

وكان هذا تحولا واسعا في قصيدة المديح المصرية، فإنها لم تعد- كما كانت أيام الفاطميين- قصيدة تُنْشَدُ في الأعياد والاحتفالات الرسمية: قصيدة مناسبات، بل أصبحت قصيدة أمجاد حربية مظفرة. وتنبه لذلك أبو شامة في الروضتين فأتبع المواقع

---

(٥١٧) رمسا: قبرا.

(٥١٨) نخسا: من النخاسة وهى بيع الرقيق.

(٥١٩) الوكس: البيع بالخسارة.

(٥٢٠) الروضتين ٢/ ١٠٥.

الحربية بما نُظم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويراً يملأ نفس كل عربي بالفتوة والقوة والمَضَاء ويدفعه دفعْ إلى أن يَكيل لأعداء العروبة والإسلام ضربات قاصمة.

ولا يكثر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب، بل يكثر أيضاً لقواده من إخوته، وخاصة أخاه العادل، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بديعة (٥٢١):

أهَذى كفُّه أم غَيْثُ غَوْثٍ ... ولا بلغَ السحابُ ولا كرامَهْ

وهذا بشْرهُ أم لَمْعُ بَرْقٍ ... ومَنْ للبرق فينا بالإقامَهْ

وهذا الجيش أم صَرْفُ الليالي ... ولا سقتْ حوادثُها زحامَهُ

وهذا التُرْبُ أم خَدَّ لَثَمْنا ... فآثارُ الشفاه عليه شامَه

ويعرف هذا الأسلوب في البديع باسم تجاهل العارف مبالغة في المديح، فالقاضي الفاضل لا يدرى أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحاب منهمر، بل أن السحاب دن كرامه الفياض. ولا يدرى أبشر وجهه الذي يتلالأ أم البرق؟ غير أن البرق يعرض ويزول أما هو فمقيم لا يَريم. وأيضاً لا يدرى ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالي، بل إن الدهر عبد لديه يصدع من دونه، لكثرة الحشود المزدحمة على تقبيلها، وكأنها نفس الشامة التي نراها على الخدود.

ويظل جاهد الصليبيين الموضع الأهم في مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حَمَلَةُ الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل، وظلوا بها نحو ثلاث

---

(٥٢١) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ١٥٥.

سنوات، وحدثتهم أنفسهم أن يتقدموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات. وتجمعت جيوشهم وأنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولو على إثرها فارين إلى البحر المتوسط وما وراءه. وتغنى البهاء زهير بن النصر المجيد في مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول(٥٢٢):

بِكَ اهتزَّ عِطْفُ الدِّينِ في حُلَلِ النَّصْرِ ورُدَّتْ على أعقابها مِلَّةُ الكُفْرِ

وما فرِحَتْ مصرٌ بذلك وحدها لقد رحتْ بغدادُ أكثرَ من مِصْرِ

فمن مبلغٌ هذا الهناءَ لملكَّةٍ وَيُرْبَ يُنهيه إلى صاحب القَبْرِ

والبهاء زهير يصوِّر تهلل الدين الحنيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تعمم مصر وحدها بل عمت أيضاً بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإنه لحريٌ تهنَّأ به منازل الوحي في مكة والمدينة وأن يهنأ به الرسول في جدثه الطاهر. وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمعوا بقيادة لويس التاع ملك فرنسا، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا، وأخذ لويس التاسع ملك فرنسا، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين والأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعاً، وأخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقمان

(٥٢٢) البهاء زهير للشيخ مصطفى عد الرازق (طبعة سنة ١٣٥٤هـ) ص٦٥.

كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشي صبيح. وأذعن لشروط الصلح التي فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئاً مدحورا. وتتطور الظروف سريعا، فيُقتَلُ توران شاه وتخلفه شجرة الدر فالسلطان أبيك. ولعل التتابع السريع لهذه الأحداث هو الذي عقد ألسنة الشعراء فلم يتغنوا ببطولة توران شاه ويشه الباسل وما أذاق حَمَلَة الصليب من نكال شديد.

وتظلُّ مصرَ وشعراءها دولةُ المماليك، وما توافي سنة ٦٥٧ حتى تكتسح سيول التتار الشام وتهبط إلى الجنوب في فلسطين ويتلقى بها جيش المماليك فيكبح جماحها في عين جالوت، ويردها قطز والظاهر بيبرس إلى غير مآب. ويُصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان عالي الهمة بعيد النظر، فأعاد الخلافة العباسية في القاهرة، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام. وعصره يُعد العصر الذهبي في زمن المماليك، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحروبه المستمرة مع الصليبيين والتتار، وكيف قوَّض للأولين مملكتهم في أنطاكية، وما كان من تعقبه الدائم للتتار في الموصل. وسمع يوما بجموع لهم على الشاطئ الشرقي للفرات، فخاصة إليهم وخاصة الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينْج منهم إلا القليل، وفي ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني- وكان حاضر الواقعة- من قصيدة طويلة(٥٢٣):

ولما ترامينا الفراتَ بِخَيْلنا ... سَكَرْناهُ منا بالقوى والقوائمِ (٥٢٤)

فأوقفتِ التيَّارَ عن جَريانَه ... إلى حيثُ عُدْنا بالغنى والغنائم

---

(٥٢٣) النجوم الزاهرة ٧/ ١٦٠.

(٥٢٤) سكرناه: سددناه.

وكان الشعراء ينثرون على بيبرس قصائدهم في كل معركة وكل نصر مظفر لى التتار والصليبيين وفي أرمينية وآسية الصغرى، وبالمثل حين كانت ينشئ المدارس والمساجد، وفي مدرسة الظاهرية يقول السِّراج الورّاق من مدحة بديعة (٥٢٥):

وشيَّدها للعلم مدرسةً غدَا ... عراقٌ إليها شَيِّقٌ وشآمُ

ولا تذكرنْ يوما نظاميَّةً لها ... فليس يَضاهى ذا النظامَ نظامَ

فهي في رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك في بغداد.

ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بد بيبرس السلطان قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ). ومرَّ بنا بناؤه لمارستان ضخم وإلحاقه به مدرسته المنصورية، وفي ذلك يقول معين الدين عثمان بن سعيد بن تولوا التنيسي المصري مستهلا قصيدة في مديحه بقوله (٥٢٦):

أنشأتَ مدرسةً ومارَسْتانا ... لتصحِّح الأديان والأبدانا

ونازل قلاوون الصليبيين مراراً، واستولى منهم على بعض الحصون. وخلفه ابنه السلطان خليل (٦٨٩-٦٩٣) وكان بطلا مغوارا فافتتح أيامه بجهاد حملة الصليب واستطاع في أقل من ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصَيْدا وبيروت وجميع سواحل الشام، فلم تبق لهم بلد والقلعة، ومن بقى منهم ولى على وجهه على البحر المتوسط وما وراءه، وكان الشعراء ما ينون يهنئون السلطان خليل بفتوحه، ولبدر الدين المنبجي التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة في تهنئه بانتصاراته المجيدة أولها:

---

(٥٢٥) الخطط المقريزى ٣/ ٣٤١.

(٥٢٦) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٢٧.

بلغتَ في الملك أقصى غايةِ الأملِ وفُتَّ شَأوَ ملوكِ الأعصرِ الأوَلِ

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعاراً مماثل من ذلك قول البوصيرى شعر المدائح النبوية المشهور(٥٢٧):

قد أخذ المسلمون عكَّا أشبعوا الكافرين صَكَّا

وساق سلطاننا إليهم خَيْلاً تدكُّ الجبال دَكّا

وحقا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعا إلى البحر المتوسط في غير رجعة ولا مآب، فقد سقطت عكا آخر حصونهم، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم، وفي ذلك يقول أحمد ابن عبد الدائم الشَّارِمْسَاحي (٥٢٨):

لا تعجبوا للمجانيق التي رشَقَتْ عكَّا بنارٍ وهدَّتْها بأحْجارِ

بل أعجبوا للسانِ النارِ قائلةً هذى منازلُ أهل النارِ في النارِ

وتتوقف حركة الفتوح، فلم يعد في الشام صليبيون، ويتحول شعر المديح إلى شعر المناسبات في الأعياد، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ – ٧٧٨هـ). وكان قد استولى على صولجان السلطنة في ربيع الثاني فقال ابن نباته:

طَلْعةُ سلطاننا تبدتْ بكامل السعد في الطلوع

فأعجب لهاتيك كيف أبدت هلال شعبان في ربيع

---

(٥٢٧) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبى) ص ٢٣١.

(٥٢٨) فوات الوفيات ١/ ٨٦

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للآداب والفنون، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار (٥٢٩):

للملك الأشرفِ المنصور سيدنا　　مناقب بعضها يبدو به العجب

له خلائق بيض لا يغيرها　　صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

وللعطار أشعار كثيرة في أحداث زمنه أنشد منها ابن تغرى بردى طائفة في الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة. ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ مدحه بقوله من قصيدة:

ظهورُ يوم الأربعاء ابتداء　　بالظاهر المعتز بالقاهرة

والبشر قد تم وكل امرئ　　منشرح الباطن بالظاهر

وربما كان أهم حدث يلانا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موئلا لكثير من القراصنة الذين كانوا يعيشون فسادا في البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصري، كما كانوا يعيشون فساداً في شواطئ مصر والشام، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثا أنتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد في عدة قصائد، من ذلك قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الخرائط أحد كتاب الدسَّت، وفيها يقول(٥٣٠):

بُشراك يا ملك المليك الأشرف　　بفتوح قرص بالحسام المَشرفي (٥٣١)

---

(٥٢٩) لنجوم الزاهرة ١١/ ٨٣.

(٥٣٠) النجوم الزاهرة ١٤/ ٢٩٦.

(٥٣١) المشرفى: نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن، والسيوف المشرفية: سيوف حادة قاطعة.

فتح تفتحت السموات العلا　　من أجله بالنصر واللطيف الخَفي

ولا نعود نسمع عن انتصارات حربية مجيدة أيام المماليك، ويصبح المديح مديح مناسبات للسلاطين في تواليهم مقاليد الأمور وفي الأعياد.

ويُظِل مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين في زمنهم ويكتظ تاريخ الجبرتي وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا في مديح الوالى العماني رضوان كتخدا المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو، وقصدته الشعراء ومدحوه عبد الله الإدكاوي، وقد صنف في مدائحه كتاباً سماه "الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية" ومن كبار مداحه مصطفى اللقيمي الدمياطي، وله مقامة طويلة ضمنها أشعار كثيرة في مديحه، وله فيه مزدوجة فريدة، يقول فيها (٥٣٢):

مليك سعدٍ قد سما في عصره　　مؤيد معظم في مصره

معزز كيوسفٍ في قصره　　عليه منشور لواء نصره

ومن مداح رضوان قاسم (٥٣٣) بن عطاء الله، وله يه مزدوجة بديعة ومدائح كثيرة، وله أيضاً فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب، وفيه يقول:

كفه الغيثُ على الناس هما　　فأعاد الخصب بعد اليَبَس

أصبح الدهر به مبتسما　　وهو في فيه محل اللعَسِ

---

(٥٣٢) الجبرتى ١/ ٢٣٢.

(٥٣٣) الجبرتى ١/ ١٩٣ وما بعدها وانظر ترجمة قاسم فى ٢/ ١٨٤.

ويكثر مدح الشعراء لعلماء الأزهر الأجلاء، ويلقانا ابن الصلاحي (٥٣٤) السيوطي كلفا بأستاذه الشمس الحنفي، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله:

إمامُ الهدى الراقي إلى ذروة العُلا ... إلى رتبةٍ عنها الثوابتُ تقعدُ

وما شئتَ قل فيه فأنت مصدِّقٌ ... مزاياه تقضي والمحاسنُ تَشْهَدُ

وأكثروا حينئذ من التأريخ بالشعر يؤرخون به قدوم والٍ أو مناسبة من المناسبات في آخر شطر القصيدة إذا تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجمَّل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة. ويحسن أن نستعرض شعراء المديح النابهين على مر الحقب.

المهذب (٥٣٥) بن الزبير:

هو الحسن بن على الغساني، ولد بأسوان في أوائل القرن السادس الهجري، وبها ثقف علوم العربية، وأوتي ملكة شعرية خصبة، فلم يلبث أن لهج بالشعراء، وما نصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى نراه يتصل ببني الكنز ويمدح كبيرهم بقصيدة بديعة يقول فيها:

لئن جهل المدَّاحُ طُرْقَ مديحكم ... فإني بها من سائر الناس أعلمُ

وهل ليَ حمدٌ في الذي قلت فيكُمُ ... ونُعْماكمُ عندي التي تتكَّلمُ

---

(٥٣٤) الجبرتى ١/ ٢٦٥ وما بعدها.

(٥٣٥) انظر فى ترجمة المهذب وأشعاره خريدة اقصر (قسم شعراء مصر ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ٢٠٤ ومعجم الأدباء ٩/ ٤٧ والنكت العصرية لعمارة اليمنى ص ٣٥ والطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ص ١٣، ١٠٠ وابن خلكان ١/ ١٦١ فى ترجمة أخيه الرشيد وفوات الوفيات ١/ ٢٤٣ والنجوم الزاهرة ٥/ ٣١٣ وحسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٥٦٣.

ونال على قصيدته جائزة كبيرة ألف دينار. ودفعه طموحه الأدبي إلى النزوح عن بلده إلى القاهرة: حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار. ونراه يمدح رضوان بن ولخشي وزير الخلفية الحافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ) ولعله هو الذي أنفذه في مهمة إلى اليمن، فأكب على كتب النسب، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع في أكثر من عشرين مجلدا. ولم تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح. وأهم وزير اتصال به بعد ابن ولخشي طلائع بن رُزِّيك (٥٤٩-٥٥٦). وكان يعد أكبر شاعر في زمنه، وقد ترجم له العماد الأصبهاني ترجمة ضيافة استهلها بقوله: "المهذب بن الزبير محكم الشعر كالبناء المشيد، لم يكن في زمانه أحد أشعر منه، وله شعر كثير ومحل في الفضل أثير". والغالب على شعر المهذب المديح.

ومن يدرس الشعر العربي يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى، فهي تقوى حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديرة بأن يسجلها الشعراء ويتغّنوها، وهي تضعف حين تعبر عن زلفى وما يتصل بالزلفى من رياء. ومعنى ذلك أنه توجد للمديح في الشعر العربي قصيدتان لا قصيدة واحدة، قصيدة ذات موضوع واضح، وقصيدة ليس لها موضوع واضح، ومن الضرب الأول مدائح أبى تمام في قواد الدولة العباسية وحروبهم في خراسان وفي آسية الصغرى، ومن أيضاً مدائح المتنبي في سيف الدولة وانتصاراته المجيدة ضرب البيزنطيين. ومن الضرب الثاني مدائح مهيار وغيرها من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام في المناسبات والأعياد المختلفة. وفرق بعيد بين الضربين، ففي الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة، بل يقرأ العرب تاريخهم في صورة

رائعة من الغناء والشعراء، أما في الضرب الثاني فلا تقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق، ولا يقرأ العرب تاريخهم حربيا أو غير حربي، إنما يقرءون ملقا وتزلفا ورياء.

ويمكن أن ندخل مدائح المهذب بين الزبير للوزير طلائع بن رُزِّيك في الضرب الأول، لأنه ملأ أيامه ببطولة محققة في حرب الصليبيين وردهم عن بعض حصون فلسطين، وفي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين للمقدسي ما يصور ذلك. فقد كانت الجيوش المصرية في أيام وزارته مائتي تنازل الصليبيين في العريش وغزَّة وعَسْقلان، وكان الأسطول المصري يقوم بدور مهم فهو يفزعهم في "صور" و"عكا" وهو يقطع على بعض سفنهم في البحر المتوسط طريقها إلى الموانئ الشامية والفلسطينية. وكان طلائع يقود بنفسه جيوشه البرية، وينتصر على الصليبيين في عسقلان وغير عسقلان، والمهذب شاعره يتغنى بانتصاراته مبتهجا بمثل قوله:

لما أَبَوْا ما في الجِفان قَرَيْتهم ... بصوارمٍ سُلَّتْ من الأجفانِ (٥٣٦)

وثَلَلْتَ في يوم العَريش عُروشهم ... بِشَبا ضرابٍ صادقٍ وطِعانِ (٥٣٧)

أَلجأتَهُمْ للبحر لما أن جَرَى ... منه ومن دمهم معًا بَحْرَانِ

ولأنت تَخْضِبُ كلَّ بَحْرٍ زاخرٍ ... مِمَّنْ تحاربُ بالنَّجيع القاني (٥٣٨)

حتى ترى دَمهم وخضرةَ مائهِ ... كشقائقٍ نُثرتْ على الرَّيحانِ

وكأنَّ بحر الروم خُلِّق وَجْهُه ... وطفَتْ عليه منابتُ المَرْجَانِ (٥٣٩)

---

(٥٣٦) الجفان: جمع جفنة وهى صعة الطعام: والأجفان: جمع جفن وهو غمد السيف.

(٥٣٧) شبا: جمع شباة، وهى حد السيف.

(٥٣٨) التجمع: الدم. القانى: شديد الحمرة.

والمهذب بن الزبير فرح مبتهج بما أفاء الله من نصر على ابن رُزِّيك في العريش، فقد دقَّ أعناق الصليبيين هناك، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منهزمة. ولا ريب في أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هو شقائق أو ورد احمر نثر على الريحان، وكأن المتوسط قد خلق وجهه وطيب بالزعفران وطفت عليه منابت المرجان، لا ريب في أنذلك كله تصوير بديع. ويذكر المهذب أن الأسطول المصري لقى فلول الصليبيين المنهزمين إلى البحر بقتل فيهم وياسر، يقول في سفنه وصنيعها بهم:

شبهن بالغربان في ألوانها ... وفعلنَ فعلَ كواسِرِ العِقْبانِ

وأءتتكْ مُوقَرَةً بسبيٍ بينه ... أسراهُمُ مغلولةَ الأذقان (٥٤٠)

وهو يصف الأسرى وقد غُلَّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لرءوسهم عطفا ولا حركة وينَّوه بقتل أحد أمرائهم قائلاً:

قَتلَ البِرنْسَ ومَنْ عساه أعانَهُ ... لَمَا عَتَا في البَغْيِ والعدوانِ

وأرى البرَّية حين عاد برأسهِ ... مُرَّ الجَنَا يبدو على المُرَّانِ (٥٤١)

وتصادف في أثناء ذلك أن وقعت زلزلة شديدة في الشام دكت بعض حصون الصليبيين فذكر ذلك ابن الزبير ملتمسا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رزِّيك:

ما زُلْزلتْ أرضُ العِدا بل ذاك ما ... بقلوبِ أهليها من الخفقانِ

---

(٥٣٩) خلق وجهه: طيب بالخلوق وهو الزعفران.

(٥٤٠) موقرة: محملة.

(٥٤١) الجنا: الثمر. المران: الرماح.

وله في ابن رزّيك مدائح كثيرة وراء هذه النونية. وكان يتقن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف، وله في استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة، كان أخوه الرشيد قد ذهب غليه في مهمة للدولة، فهمَّ بقتله، وسَجَنه، فأرسل إليه بتلك القصيدة يستعطفه لأخيه، فعفا عنه وردَّ إليه حريته. واشتهرت القصيدة بغزلها وما يزمر فيه من لهفة على أخيه، إذ يقول:

بارَبْعُ أين ترى الأحَّبة يَمَّموا ... هل أَنْجدوا من بعدنا أو أتْهَمُوا (٥٤٢)

نزلوا من العينِ السوادَ وإن نَأوْا ... ومن الفؤاد مكانَ ما أن أكتمُ

رحلوا وفي القلب المعَّنى بعدهم ... وَجْدُ على مَرَّ الزمان مخيَّمُ

وتعَّوضَتْ بالأنْسِ روحي وَحْشَةً ... لا أوحش اللهُ المنازلَ منهمُ

لا تبعثوا لي في النسيم تحيَّةً ... إني أغارُ من النسيم عليكمُ

والأبيات تعبر عن عاطفة الحب الملتاعة وأنه لن ينسى أحباءه أبدا نزلوا نجدا أو نزلوا تهامة، فهم في سويداء فؤاده والوجد يبرَّح به، والوحشة منهم تلذع روحه، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار. وما يلبث أن يعبر في البيت الأخير عن رقة ورهافة حسن بالغة، وله من جملة قصيدة بيته المشهور:

وما لي إلى ماءٍ سوى النَّيلِ غُلَّةٌ ... ولو أنه- استغفر اللهَ- زمزمُ

وهو يصور أدق تصوير محبته لوطنه، وهى محبة تملك دائماً على المصريين شغاف قلوبهم. وكان المهذب وأخوه الرشيد- وكان شاعرًا مثله ت وثقا صلتهما بشيركوه وصلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين، وليم

---

(٥٤٢) أنجدوا: دخلوا نجدا. أتهموا: دخلوا تهامة.

يلبث شاور أن قلب ظهر المجن لصلاح الدين وعمه شيركوه، واضطرا مبارحة مصر فترة. وحينئذ يتل شاوَر الرشيد ويسجن المهذب فينظم شعرًا كثيرا في استعطافه، ويرد إليه حريته، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة.

ابن قلاقس (٥٤٣):

هو نصر الله بن عبد بن قلاقس الإسكندري، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها، ولزم حلقة أبى طاهر السَّلْفى أكبر المحدثين في عصره، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح بعض أولى الأمر المشرفين على الإسكندرية. وكان في أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه السلفي وله فيه مدائح بديعة مثبتة في ديوانه من مثل في ديوانه من مثل قوله:

تَفيضُ بحارُ العلم من كلماتِه ... فإن كنت ظمآنا فرِدْ خَيْر مَنْهَلِ

فيا أيها المحمودُ من كلِّ ناطقٍ ... على كل معنى في فِنَا كلِّ منزل

تحاسدَتِ الأيامُ فيك فلم تزل ... مُنَى القادم الجذَلانِ والمتَرحَّلِ

وهو يشير إلى علْم أستاذه وأنه كان مقصداً للراحلين في طلب الحديث من كل بقاع العالم الإسلامي. وليس في ديوانه مديح لوزير مصري شاوَر وزير العاضد (٥٥٧-

---

(٥٤٣) انظرفى ترجمة ابن قلاقس الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/ ١٤٥ ومعجم الأدباء ١٩/ ٢٣٦ وابن خلكان ٥/ ٣٨٥ وحسن المحاضرة ١/ ٢٤٢ والشذرات ٤/ ٢٢٤ ومرآة الجنان ٣/ ٣٨٣ وديوانه طبع قديما بمطبعة الجوانب وراجعه وضبطه خليل مطران.

٥٦٤هـ). واتصل بكتّاب الديوان لعهده ومدحهم، وفي مقدمتهم القاضي الفاضل، وله فيه غرر المدائح، ومن قوله في إحداها متخلصًا من الغزل إلى مديحه:

يا ربَّ خَمْرٍ فَمُهُ كأسُها	لم اقتنع من شربها بالشَّميمْ
أَتْبَعْتُ رَشْفًا قُبَلاً عندها	وقلتُ: هذا زمزمٌ والحَطِيم
فافترَّ إما عن أقاحي الرُّبَى	تضحك أو دُرَّ العقود النَّظيم
أو كان قد قبَّل مُسْتحسنًا	ما حبَّر الفاضلُ عبدُ الرَّحيمْ
مَنْ لفظُه راحٌ وأخلاقُه	رَوْحٌ وتلك الدارُ دارُ النعيم

والأبيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة، ففم صاحبته كأس خمر، وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقبلها وكأنه يقبل الحَطيم المقدس. وضحكت فخال أقاحي الربى تضحك، بل عقد در نظيم، بل درر القاضي الفاضل عبد الرحيم، من لفظه خمر وأخلاقه فرح وداره جنة الخلد، ولعله يريد قصر الخلافة الذي كان يعمل به الفاضل كاتبا.

وليس في شعره أي شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع، وكان عهد وزارة شاور عهدا مضطرباً أشد الاضطراب، فسدت فيه أداة الحكم فسادًا شديداً، مما جعل شاور يصطرع مع ضرغام على الوزارة، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، فيعيدانه إلى كرسي الوزارة، وما يلبث أن يستعين ضدهما بالصليبيين. ولعل هذا الاضطراب الشديد الذي عانته البلاد حينئذ هو الذي جعل ان قلاقس يفكر في مبارحة مصر إلى صقلية، ويبدو أنه كان يسمع في أثناء مقامه بالإسكندرية عن مسلميها الذاهبين إلى الحج تنويا كثيرا بل وبرجالاتها، وكانت قد

سقطت في أيدي النورمانديين ولكن أمراءهم منذ روجّار كانوا لا يزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمي والأدبي. على كل حال نفاجأ برحيل ابن قلاقس إلى صقلية في شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكد ينزل بها حتى أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفًا بديعًا، وكانت قد أعجبته مشاهدها الطبيعية فأنشد:

بلدٌ أعارتْه الحمامةُ طَوْقَها ... وكساه حُلَّةَ ريشِهِ الطاووسُ

فكأنما الأزهارُ منه سُلافةٌ ... وكأنَّ ساحاتِ الديار كئوسُ

وتنقَّل في بلدانها، وكانت لا تزال عامرة بالمسلمين، ونزل حاضرتها يَلِرْم، وتعرَّف على أكبر شخصية عربية بها: أبي القاسم بن الحجر، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهى فيهم، وفيه دبج مدائح كثيرة، مشيدا ببيانه وبلاغته، وبحسن تدبيره، بمثل قوله:

وبيمناك طَيْرُ يُمْنٍ وسَعْدٍ ... أَصفَرُ الظهر أسودُ المنقارِ

قلمٌ دبَّر الأقاليم فالكتْـ ... ـبُ به من كتائب الأقدارِ

والبيت الثاني يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين في صقلية، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية، وفيه كتب ابن قلاقس كتابا سماه "الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم" وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائحه فيه، واحتفظ العماد الأصبهاني في ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب. وفي ديوانه مدائح كثيرة لشخصيته ثانية بصقلية، هي شخصية القاضي على بن

أبى الفتح بن لف الأموي، ويقول العماد إنه نوه به في كتابه الزهر الباسم وقال عنه "حَدقة العلم الناظرة وحديقة الأدب الناضرة" وفيه يقول:

وكم لك في الفصاحة من أيادٍ ... ملكتَ بها الفَخار على الإيادي (٥٤٤)

تَخِذتُك من صقلِّيةٍ خليلا ... فكنت الوردَ يُقْطَفُ من قَتادِ

وشِمْتُك بين أهليها صَفِيًّا ... فكنت الجمرَ يُقْبَسُ من زنادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد، ولا أنهم زناد صلد وهو وحده الجَمْر، وكل ما في الأمر أنه يريد أن يمدحه، وبالغ في مديحه، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر ممدوحه وراعيه فيها، وقد مدح بها آخرين، منهم جُرْدُنّا وزير صاحب صقلية، وفيه يقول:

وجَرَّدْنا المدائح فاستقرَّتْ ... على أوصاف جُرْدَنَّا الوزيرِ

وهو يشير مراراً إلى مجلس الشراب في صقلية، وأنه قضى بها أياما وليالي هنيئة، كان يستمتع فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يتثنَّين في نسق بديع من الحركات يقول:

ومُغَنٍّ تناولتْ يدهُ العو ... دَ فعادتْ بنا إلى الأفراحِ

بين ريحٍ من المزامير أَسْرَى ... بين أجسامنا من الأرواح

وصِباحٍ قد عقدوا طُرَرَ اللَّيْـ ... ـلِ جمالا على الوجوه الصَّباح

يبعث الروضُ منهمُ حركاتٍ ... سرقتْ بعضَها طِوالُ الرِّماح

---

(٥٤٤) هرقس بن ساعدة الإيادى الخطيب المشهور.

وعاد ابن قلاقس إلى مصر، فوجدا لا تزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين، ففكر في الارتحال عنها، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ استقبله استقبالاً حنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبى السعود ابني عمران حفيد الداعي سبا صاحبها، فأغدق عليه قائلاً غمراً، وركب البحر الأحمر عائداً إلى مصر، فانكسر المركب به وغرق جمع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلك، فعاد إلى ياسر، وأنشده قصيدة دالية استهلها بقوله:

صَدَرْنا وقد نادى السماحُ بنا رِدُوا ... فعُدْنا إلى مَغْناك والعَوْدُ أحمدُ

وجاذَبنا لأهل شوقٌ يقيمنا ... وشوقٌ لُمُغْنِينا عن الأهل يقعد

وما فاحَ فينا غيَر ذكراك روضةٌ ... ولا ساح فينا غيَر نُعماك موردُ

فيا ياسرًا نِلْنا به الفضلَ ياسرًا ... ويا من وجدنا منه ما ليس يُوَجَدُ

دعوتَ بصوت الجود حَيَّ على النَّدَى ... لأنك تَرْوي عن بِلالٍ وتُسْنِدُ

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع، وما أروع بينها الأخير، وقد تصور ياسر يؤذن بصوت الجود داعيا الناس إليه، ويعل ذلك تعليلاً طريفا، إذ يقرن اسم أبيه بال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويقتد به قدوة حسنة. وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير، ومن طريف صورة وتعليلاته قوله في جارية سوداء:

رُبَّ سوداء وَهْيَ بيضاءُ معنًى ... نافسَ المسكَ عندها الكافورُ

مثلَ حَبَّ العيون يحسبه النا ... سُ سوادًا وإنما هوَ نورُ

وهى صورة بديعة غريبة. ويكثر مثلها عنده، كقوله يصف الشعر وأن منه ما يذبل سريعًا ومنه ما يخلد على الدهر، ومنه القبيح ومنه الجميل، يقول:

الشَّعْرُ منه قصيرٌ عمُره زَهَرٌ ... يَذْوَى ومنه طويلٌ عمرهُ زُهُرُ (٥٤٥)

أو كالعيون فهذى حظُّها حَوَلٌ ... يُغَضُّ منها وهذى حَظُّها حَوَرُ

وكان قد ظل عند ياسر نحو سنتين وعاد في شوال سنة سبع وستين وركب البحر إلى عَيْذاب ثغر و على بحر القُلْزُم، وكأن الموت كان في انتظاره. فلم يكاد ينزلها حتى لبَّى نداء ربه وهو في الخامسة والثلاثين من عمره.

ابن سناء (٥٤٦) الملك:

هو القاضي السعيد هبه الله بن القاضي الرشيد أبى الفضل جعفر بن القاضي المعتمد سناء الملك السعدي وله سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت ياسر ونعمة، إذ كان أبوه وجده من كتاب الإنشاء في الدولة الفاطمية، كما يدل على ذلك تلقيبها بلقب القاضي الذي كان يمنح لكبار الكتاب، وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضي

---

(٥٤٥) زهر: نجوم، كناية عن الخلود.

(٥٤٦) انظر فى ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مر) ١/ ٦٤ ومعجم الادباء ١٩/ ٢٦٥ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان ٦/ ٦١ وعبر الذهبي ٥/ ٢٩ والشذرات ٥/ ٣٥ وحسن المحاضرة ١/ ٢٤٣ وبدائع البدائة لعلى بن ظافر وخزانة الادب للحموى فى مواضع متفرقة ومقالنا: "الروح المصرية فى شعر ابن سناء الملك" بكتابنا: "صول فى الشعر ونقده وابن سناء الملك: حياته وشعره لمحمد إبراهيم نصر" ومقدمة محمد عبد الحق لنشرته للديوان فى الهند، ونشره وحققه فى القاهرة محمد إبراهيم نصر.

الفاضل حين كان يعمل معها في الدواوين الفاطمية. لما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين وأتخذ القاضي الفاضل وزيراً له ومستشاراً قرب الفاضل منه جعفر بن سنان الملك وتوثقت الصلة بينهما حتى ينيبه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام. وعُنى جعفر بتربية ابنه هبة الله منذ نعومة أظفاره، فعهد إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم، حتى إذا حفظه اختلف إلى حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن برى أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ وأكب يقرأ كتب الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه العلوم في الحين بعد الحين. ودفعه طموحه العلمي إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث على السُّنَّى الكبير الحافظ السَّلْفِيّ أحمد بن محمد، وفيه يقول:

وجئتُ إلى الإسكندريَّة قاصدًا ... إلى كعبة الإسلامِ أو عَلَم العِلْمِ

إلى أحمدَ المحي شريعةَ أحمدٍ ... فلا عدمتْ منه أبًا أُمَّةُ الأمَّي

وقد أكب على دواوين الشعراء يلتهمها كما أكب على الموشحات الأندلسية في طليعة عمره كما يقول في مقدمة كتابه النفس "دار الطراز" الذي سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات، وإنه يقوم في ذلك مقام الخليل بن أحمد في وضعه عروض الشعر العربي، ونراه يختم بعض موشحات بأقفال أعجمية مما يدل على معرفته بالفارسية. ويشهد وضعه لعروض الموشحات وضعًا نهائياً بذكاء خارق.

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكراً تفتحًا راع القاضي الفاضل كبير أدباء زمنه، فاستأذن أبه في أن يتخذه كتابا بين يديه، وأذن له، وأضفي عليه من إعجابه بشعره ووده ما أصبح به أبا روحيا له ولفنه. ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية

كتاب ابن سناء الملك المسمى "فصوص الفصول" ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، والكتب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضي الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين، فيكاتب الشاعر وأباه، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائحه فيه أو في صلاح الدين.وهى ليست مكاتبات إخوانية فحسب، بل هي أيضا ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره. وتموج رسائل الفاضل فيها بثناء غَدقٍ عليه من مثل قوله عن بعض قصائده: "ما يرينا من آية إلا هي أكبر من أختها، وما يجلو علينا عروسا إلا وقد جمع بين حسنها وبَخْتها، وقلما يُجْمَعُ بين الحسن والبَخْت" ويفضَّلها على المعلقات. ويمدحه مرة ثانية فقول: لله دَرُّ تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال، بل عقود الجبال.. ولقد أبقى للآباء ذكرا، وللأبناء فخرا، وأرسلها مقلدات، فأرهفها مجردات، وأثارها أو أبدا، فنظمها قلائد". ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات. ويهمنا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقدا كما كان شاعرا.

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ، باسم روح الحيوان، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة، ويذكر له كتابا ثانياً باسم مصايد الشوارد. وكان ناثرا بارا كما كان شاعرا مبدعًا، يقول ابن خلكان: "ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصا، ولم يوف الزيادة، التي جرت بها العادة: "وأما أمر الماء فإنه نضبت مشارعه، وتقطعت أصابعه، وتيمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء، وهم المقياس من الضعف بالاستلقاء". يقول ابن خلكان: "وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل". وزعم

ابن سعيد في كتابه المغرب أنه كان غاليا في التشيع، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده بمدح يمدح القاضي الفاضل في يوم عاشوراء ذاكراً مقتل الحسين الشهيد فيه يقول:

يومٌ يساءُ به وفيـ ـهِ كلُّ شيعيٍّ وسُنِّي

ولم يكن القاضي الفاضل شيعيا، بل كان سُنِّيًا ومثله ابن سناء الملك، وهو لذلك يقول أن ذكرى هذا اليوم تحزن السنيين والشيعة معًا. وقد أشار إلى رثائه لبعض العلويين من أمصاره إلى نوم الخلق عن ثأر الحسين. وفي رأينا أنه ليس في ذلك ما يعارض سنيته، فإن مصرع الحسين يأسى له الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعة جميعها، وقد صرح في مدحه للقاضي بأنه سني رغم حبه وشيعه له يقول:

وغدوت في حبي له متشيعًا من ذا رأى متشيعاً متسَّننا

وليس من المعقول أن ينال حظوة القاضي الفاضل وصلاح الدين شاعر شيعي غال في تشيعه. ويبدو أن الصفدي قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد، وأكدها عنده أنه قرأ في ديوان ابن الساعاتي هجاء له في ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل، فزعم أنه إنما سقط عنه لبغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصديق أبا بكر، يقول:

أبغضتَ بالطبع أمَّ المؤمنين ولم تُحْبِبْ أباها فجاءتْ وقْعَةُ الجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاتي جره إليه أن اسم الجواد الجمل، وله فيه أهاج مختلفة كما يشهد ديوانه، وكأنه ذكر ذلك كيدا له. وقد أشاد في مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعا، ولم يخص على أبى طالب بتنويه. ومر بنا أنه تتلمذ على الحافظ السلفي أكبر سني في عصره.

وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش، لثراء أبيه، وفي الديوان أنه أهداه مرة بستانا ومرة فندقا. وظل موظفا في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته، وبعد وفاة صلاح الدين واستعفاء القاضي الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل بتدبير ديوان الجيش، غير أنه استعفاه فأعفاه. ولم يلبث أن توفي سنة ٦٠٨. ولم يكن يعمل مع كل أولئك السلاطين فحسب، بل كان يقدم إليهم مدائحه وكانوا يجزلون له في العطاء، وبالمال كان يجزل له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم، وفي ديوانه مدائح كثيرة لهم ولصفي الدين بن شكر وزير السلطان العادل. فالأموال كانت تُغدقُ عليه بالإضافة إلى راتبه وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفا منعما. وفي ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطل على النيل وحديقتها وما كان بها من نافورات، وكانت منتدى للشعراء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث، وقد أوضحنا في مقال عنه بكتابنا فصول في الشعر ونقده تمثيله في أشعاره للروح المصرية، ومن ذلك ما يجرى في أساليبه من السهولة التي تعد انعكاسا لما يشع منها في روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهولة وما أسبغ على ساكني ضفافه من حياة سهلة مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامية المألوفة في ألسنة المصريين مثل "ياما بمعنى كثير جدا، ومثل "وديني هو علىّ أكثر" ومثل على عيني". ومن ذلك الرقة

في ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدماثه، مما جعله يكثر من التغزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله في إحداهن:

شمسٌ بغير الليل لم تُحْجَبِ ... وفي سوى العَيْنين لم تُكْسَفِ

مُغْمَدَةُ المُرْهَفِ لكنها ... تَفْتِكُ بالغِمْدِ بلا مُرْهَفِ

فهي شمس منيرة تحجبا غلالة من الليل، شمس أصابها في عينيها كسوف، ونورا يغمر كل ما حولها وإن جفونها تطبق على عينيها إطباق الغمد على سيفه، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القطاع. ويتجسد تمل ابن سناء الملك للروح المصرية في تعلقه الشديد- مثل المصريين جميعا- بوطنه وتفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضي الفاضل بالشم في إحدى القضايا المهمة، حتى ليقول:

واللهَ ما أَشْرِى الشآمَ ومُلْكَهُ ... وغُوطَته الخَضْراء بِشْبرين من شُبْرَا

فغوطة مشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه، كل ذلك لا يشتريه بشبرين من شبرا: إحدى ضواحي القاهرة. وصفة مصرية رابعة ماثلة بالقوة في شعره هي حبه لأبويه وأسرته حيًّا يملك عليه كل شيء من أمره، مما نراه مائلاً في مراثيه لأمه وأبيه وجده وزوجه وأخته وأخوته. وله في أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين:

يا سائلا عن مَعاليهِ ليشَهْرَها ... البدرُ في الأفقْ يستغنى بشهرتهِ

ذاك الذي يَبْسم الدهرُ العبوسُ بهِ ... تِيهًا وتبتهج الدنيا ببهجتهِ

ونحس في مديحه لأبيه بسعادته سعادة غامرة وهو يتحدث عن منزلته وأدبه وعلمه وشيمه في إجلال وإكبار يفوقان الوصف. وأيضاً ما تمتاز به مصر من تعلق بالدين نجده مصورا في أشعاره.

وأهم من أستنفذ مدائحه صلاح الدين والقاضي الفاضل، ومعروف أن صلاح الدين قضى على أسطورة الصليبيين وما كان يقال عن بأسهم وما أسوه في الشام من ممالكهم فقد مزق جموعهم تمزيقا، ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه. وقد مضى ابن سناء الملك يمدحه مدائح رائعة منذ إعداده لحرب الصليبيين ومد سلطانه على حلب وغيرها من ديار الشام، وجمعه للعرب تحت لوائه، حتى ينقض بهم على حملة الصليب، وله يقول:

بدولةِ التُّركْ عَزت مَّلةُ العربِ ... وبابن أيوبَ ذلَّتْ شِيعةُ الصُّلُبِ

وفي زمان ابن أيوبٍ غَدتْ حلبٌ ... ومن أرض مصرٍ وعادتْ مصرُ من حَلبِ

وكأنه كان يستشعر في عمق أمنية توحيد العالم العربي. وله في صلاح الدين مدائح كثيرة يصور فيها بطولته وبطوله جيوشه وسحقهم للصليبيين. ومازال صلاح الدين ينزل بهم الدماء ويأخذ منهم الحصون والبلاد حتى كانت هزيمتهم الكبرى في موقعه حِطَّين، وفيها جرت دماؤهم انهارا وتعم الفرحة الديار العربية، ويهنئ ابن سناء الملك صلاح الدين بهذا النصر المبين قائلاً:

لستُ أدرى بأيِّ فَتْحٍ تُهَنَّا ... يا مُنيلَ الإسلامِ ما قد تمنَّى

أنهَّنيك إذ تملَّكتَ شامًا ... أم نُهنِّيك إذ تملَّكت عَدْنا

قد ملكت الجِنان قَصْرًا فقصرا ... إذ فتحتَ الشآم حِصْنًا فحِصْنا

لك مدحٌ فوق السموات ينْشا ... ومحلٌّ فوق الأسنَّة يُبْنَى

حَمَلوا كالجبال عُظْمًا ولكن ... جَعَلْتها حَملاتُ خَلْيك عِهْنا (٥٤٧)

لم تلاق الجيوش منهم ولكنـ ... ـك لاقيتهم بلادا ومُدْنا

وتصـيَّدْتَـهم بحلقة صَيْدٍ ... تجمع اللَّيْثَ والغزال الأغنَّا (٥٤٨)

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيراً من الصور المبتكرة، وقد مضى فيها بـصور أخـذ صلاح الدين لصليب الصلبوت الذي يزعم المسيحيون أن المسيحُ صُلب عليه، ويغريه بإحراقه، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابس وببيت جبريل وتبنين وغيرها مـن مـدن الشام وحصونه، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكَرك بيده جزاء وفاقاً لسوء فعله وقولـه لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداده أسطولاً – كما مر بنا– لغزو مكة والمدينـة، ولما نُقل إليه عنه من استخفا فِه بالرسول عليه السلام.

ومدائحه في القاضي الفاضل كثيرة حتى لتُعَدّ بالعـشرات، إذ كـاد لا يـترك مناسـبة دون أن يهديه من أشعاره، فهو يهديها له في الأعياد وفي القدوم من الشام ومن الحج وفي انتصارات صلاح الدين، إذ كثيراً ما ينِّوه بها في مدائحه له، وهـو فيهـا يبـالغ مبالغـات كثيرة من مثل قوله:

صَّور الله ذلك الشخص نورًا ... وجميعُ الأنام ماءٌ وطينُ

وقوله:

وما الدهرُ إلا خادمٌ أنت ربُّهُ ... وما الخلقُ إلا عالَمٌ أنت فاضلُهْ

---

(٥٤٧) يشير إلى لآية الكريمة: (تكون الجبال كالعهن المنفوش) والعهن: الصوف.

(٥٤٨) الغزال الأغن: الذى يخرج صوته من خياشيمه.

وقوله:

الدهر مدَّ إليه كفَّ مفتقرٍ فمدَّ للدهر منه لحظَ محتقرِ
في كفِّه قلمٌ إن شئتَ أو قدرٌ يصَّرف الخلق بين النفع والضررِ

وهو يكرر معنى البيت ويطيل فيه، وله يقول:

بميمونِ رأيك كان الفتوحُ ومنصورِ عَزْمك كان الغَلبْ

وكثيراً ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قولة صلاح الدين المشهورة: لم أنتصر على الأعداء بسيفي وإنما انتصرت بقلم القاضي الفاضل، وفيه يقول واصفاً كرمه الفياض:

لا يستقُّر المال فوق بنانِه حتى كأن بنانه مَخْروقُ
يا طالبين ذُرَي عُلاه توقَّفوا ومؤمَّلين نَدَى يديهِ أفيقوا

وهما بيتان رائعان في وصف الجرد، وبحق كان القاضي الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل تكريم فقد رعاه أعظم رعاية، ونوه بأشعاره تنويهاً ليس وراءه غاية وبحق، يقول له:

شكري لنُعْماك شكْرُ الأرض للمطرِ أولاً فشكْر سوادِ العَين للنظرِ

فهو يشكره شكر الأرض المجدبة للغيث المدار الذي يحيي مواتها، بل شكر سواد العين لنور البصر الذي يصلها بالوجود ومشاهده. وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله في جوده المنهمر على الناس:

وقصَّر البحُر عنه فهْو مكتئبٌ أما تراه بكَّفيْ مَوْجهِ التَطما
وولَّتِ السحبُ – إذ جارتْه – باكيةً أما تري الدمع من أجفانها انْسَجما

فالبحر يشعر إزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفي موجه، وإن الغيث ليبكي بدموع غزار لا تزال تنهمل. ونحسُّ بفرحة تسري في كثير من مدائحه

للفاضل كما نحس خفة الظل التي يشتهر بها المصريون وخاصة في تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله:

ضَنَّتْ بطرفٍ ظلَّ يُعْدِي سُقْمُهُ ... أرأيتمُ مَنْ ضَنَّ حتى بالضَّنا

إني رأيتُ الشمس ثم رَأيتها ... ماذا علىَّ إذا هَوِيتُ الأحسنا

وسألتُ من أيَّ المعادن ثغْرُها ... فوجدتُ من عبد الرحيم المعدنا

أبصرتُ جوهَر ثَغْرِها وكلامَه ... فعلمت حقًّا أن هذا من هنا

وضَنَّ صاحبته بالطرف وعدواه وضنَّها حتى بالسقم أو بالضَّنا غريب، وتلطَّف في التخلص من الغزل إلى المديح القاضي الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعذوبة الكلم. وله في غزله كثير من هذه التصاوير المبتكرة، كقوله:

أقمتِ على عاشقيك القيامَهْ ... بوردٍ لخدٍّ وغُصْنٍ لِقَامَهْ

فمِنْ وَرْدِ خدَّك كيف النجاةُ ؟! ... ومن غُصْنِ قدِّك كيف السلامَهْ

وقوله:

وأشكو إلى ليلِ الغَدائِرِ غَدْرَها ... وأَملي عليه وهْو في الأرض يكتب

وقوله:

ألقىَ حَبائلَ صَيْدٍ منْ ذَوائبِه ... فصادَ قلبي بأَشْرَاكٍ من الشَّعَرِ

وقوله:

لا تَخْشَ مني فإن كالنسيم ضَنًا ... وما النَّسِيمُ بمخشيٍّ على الغُصُنِ

وقوله:

يُعانقها من دونيَ العِقْدُ وَحدَهُ ... فيا عجبًا يا قومُ هل يَقْلَقُ العِقْدُ

وقوله:

سألتْني ما حالُ قلبك بعدي ربَّةَ البيت أنتِ بالبيت أخبَرْ

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان ما يزال يغوص وراء التصاوير حتى يأتي منها بفرائد عجيبة، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته، مما يدل على أنه كان شاعراً مبدعاً إلى أبعد حدود الإبداع. وسنعود إليه مراراً في عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح.

ابن نُباتة(٥٤٩)

هو جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد، من سلالة عبد الرحيم ابن نباتة خطيب سيف الدولة المشهور، وقد غلبت عليه نسبته إليه. كان أبوه وجده من شيوع الحديث، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل في القاهرة، واختلف من ترجموا له في سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد في السنة الأخيرة، غير أن هناك نصاً عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخه في الأدب، ويذكر من بينهم محي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو في الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد في

(٥٤٩) انظر في ابن نباتة وشعر الدرر الكامنة ٤/ ٣٣٩ وحسن الحاضرة ١/ ٥٧١ وطبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٢٧٣ والوافي بالوفيات للصفدي ١/ ٣١١ والبداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ٣٢٢ والنجوم الزاهرة ١١/ ٩٥ وشذرات الذهب ٦/ ٢١٢ والبدر الطالع ٢/ ١٥٢ وخزانة الأدب للحموي في مواضع متفرقة وكتاب ابن نباتة المصري لعمر موسى (طبع دار المعارف) والأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام (طبع دار المعارف) ٢/ ٢٢١ وطبع ديوانه قديماً مصر وهو في حاجة إلى طبعة محققة، ومنه مخطوطات كثيرة في مكتبات العالم العربي والغربي.

سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك. ويذكر مترجموه كثرة من شيوخه في الحديث من بينهم أبوه وجدّه. وتنقل في حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية في الشعر والنثر مبكرة. وكان كثير من العلماء في مصر يبرحونها إلى دمشق والشام في تلك الحقب. وبالمثل كان كثير من علماء الشام يبرحونها إلى مصر والقاهرة، ويبرح أبوه مصر إلى الشام حوال سنة ٧١٠ وينزل دمشق، ويأخذ الطلاب عنه الحديث،(٥٥٠) ويستقر بها ويتولى فيها بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك. ولعل ارتحال أبيه عن مصر هو الذي حبب إليه الرحلة وراءه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاماً، وقد يظل يحن إلى مصر حنيناً متصلاً بمثل قوله:

آهٍ لمصَر وأرض مصَر وكيف لي ... بديار مصَر مراتعاً وملاعباً
حيث الشبيبةُ والحبيبةُ والوفا ... في الأقربين مشاربًا وأصاحبا
والدهُر سلمٌ كيفما حاولتُه ... لا مثلُ دهري في دمشق محاربا

وفؤاده يهفو إلى مصر وتراب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه، ويقول إنها ديار شبابه وحبه وديار الوفاء في الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلامة ونعيمه. وفي أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبي الفداء الذي استقبله أروع استقبال، وقرر له راتباً سنوياً: ستمائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحه من مدائحه، وظل يفد عليه حتى توفي سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده.

---

(٥٥٠) انظر ترجمته في الوافي بالوفيات ١/ ٢٧٠ والدرر الكامنة ٤/ ٢٩١.

وفي دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح – كما يقول ابن كثير والسبكي – حامل لواء الشعر في زمانه، غير منازع ولا مدافع. وأروع أيامه حينئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد، ونراه لا يكتفي بما يقدم إليه من مدائح، بل يؤلف الكتب باسمه ويهديها له مثل كتابه "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" وهي الرسالة الهزلية، ومثل كتابه "مجمع الفوائد". وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها، مما جعله يؤلف فيهم كتابه "سجع المطرق" مترجماً لهم، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطاً. ونراه في هذه الفترة: فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها، من مثل ابن الزَّمْلكاني وابن صَصْري القاضي والشهاب محمود شاعر الشام وتقي الدين السبكي وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمري، وله فيهم جميعاً مدائح بديعة. وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السر في دمشق، فكان طبيعياً أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع. وكان أحياناً يعزل عنها وأحياناً يعود إليها حتى سنة ٧٦١. وفي هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة في ربيع الأول وأمر أن يصرف له ما يتجهز به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب، وعينه موقّعا للدَّسْت وكانت قد تقدمت سنه، فلم يستطيع القيام بتوقيع الدَّسْت، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسَخٍ منه في المكاتب السلطانية. وبذلك أمَّره على الشعراء، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه. ولم يلبث السلطان حسن أن توفى، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفي بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة.

وكان نَبْعُ الشعر عند ابن نباتة فياضاً، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه "القطر النباتي" وهو خاص بمقطوعاته الشعرية، والقطر السكر والتورية في اسم الديوان واضحة، يريد السكر النبات. وله ديوان خاص بغزلياته سماه "سوق الرقيق". وديوانه الكبير يكتظ بالمدائح، وعُني كثيرون من معاصريه بمعارضته في بعض قصائده، واشتهر الصفدي بكثرة إغارته على معانيه، وخاصة على تورياته البديعية وكان مغرماً بصنعها، وألف في سرقات الصفدي منه كتاباً سماه "خبز الشعير" يريد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المذموم، واستهل خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا) ويورد دائماً أبياته موضع السرقة، ثم يورد سرقة الصفدي مثل قوله في الغزل موريا.

ومولع بفِخاخ ... يمدُّها وشِباكِ
قالت لِيَ العين ماذَا ... يصيدُ قلت كَراكي

ويقول الصفدي:

أغار على سَرْح عند ما رمى الـ ... كراكي غزالٌ للبدور يحاكي
فقلت ارجعي يا عينُ عن وِرْد حسنه ... ألم تنظريه كيف صادَ كراكي

والكرى: النوم، والكراكيُّ طير مفرده كركيّ. والتورية واضحة عند ابن نباتة وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدي ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل، ومن ذلك قول ابن نباتة متغزلا:

فديتُك أيها الرَّامي بقوسٍ ... ولَحْظٍ ياضَنَا قلبي عليهِ
لقوسك نحو حاجبك انجذابٌ ... وشِبْهُ الشيء منجذبٌ إليه

ويقول الصمدي:

تشرَّط مَنْ أُحبُّ فذُبْتُ وَجْدًا فقال وقد رأى جَزعي عليهِ
عقيقُ دمى جَرَى فأصاب خَدَّي وشِبْهُ الشيء منجذب إِليه

وتشبيه الحاجب بالقوس وانجذابه إليه طبيعي، أما انجذاب الدم إلى الخد وتشبيهه به فنافر منه بعيد.

وابن نباتة في شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الخفة والرشاقة. ويذكر السبكي في كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزَّمْلكاني بتائية رائعة بدأها بالغزل ووصف الخمر، وأنشدها ثم قال: "حاول أدباء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه، بل قصَّروا وتأخروا ولم يلحقوا شأوه".(٥٥١) وأروع مدائحه ما نظمه في المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك في السلطان حسن، وقد دبَّج في المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله:

لو أنَّ للبحر جَدْواه لفاض على وَجْه الثرى بنفيس الدر منضود
ولو أمَرَّ على صَلْد الصَّفا يدَه لأنبت العشب منها كل جلمود
يا حبَّذا الملكُ الساري على شِيَم تروى وتنقل عن آبائه الصيد
أغني العُفاة فلولا ناهياتُ تقًي – أستغفر الله – سموه بمعبود

وهو دائم الإشارة بجوده الفياض على العفاة والسائلين، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وما شادوا لأنفسهم من بيت فخار مدوه في أعلى السموات ولا يزال يتألق ويضيء بين الكواكب. وكان المؤيد مؤرخاً كبيراً، وعالماً

(٥٥١) طبقات الشافعية ٩/ ٢٠٠.

والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة، وبنوه ابن نباتة مـراراً بعلمـه مـن مثل قوله مشيراً إلى تصانيفه الكثيرة:

العالمُ الملكُ السيارُ سُؤْدُدُه ... في الأرض سَيْرَ الدَّرارِي بين أفلاكِ

وقوله:

وللعلوم تصانيفٌ بدَتْ فغَدَتْ ... نعم السَّوَارُ على الإسلام والسُّورُ

وكان مولعاً بالتورية كما أسلفنا، وكـان يـدخلها في مدائحـه للمؤيـد، وروى كثـيراً باسم مدينته حماة عن الحماة الحقيقية، ومن توريـاته الطريفة في مديحه قوله:

أقسمتُ ما الملك المؤيَّدُ في الوَرَى ... إلا الحقيقةُ والكرامُ مجازُ

هو كعبةٌ للفضل، ما بين النَّدَى ... منها وبين الطالبين حِجازُ

وواضح أنه ورَّى في كلمة "مجاز" فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقـة، وإنـما أراد بها المعنى البعيد وهو المَعْبَرُ، وورَّي في كلمة "حجاز" فلم يرد بهـا المعنـى القريـب الذي تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز إقليم الكعبة المعروف، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحاجز، ومن ذلك قوله في مديح المؤيد:

يذكّرنا أخبارَ مَعْنٍ بجودِهِ ... وتُنْشى له لفظًا فيُنْشِئ لنا مَعْنَا

ومعن ابن أوس المزني مشهور بجـوده في مفتـتح العـصر العبـاسي شـهرة حـاتم في الجاهلية، وقد ورَّى آخر البيت في مدلول كلمة معنى، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها معنا المزني.

وممدوحه الثاني في الديوان بعد المؤيد ابنه السلطان الأفضل، وقد أنشده حين تولى إمارة حماة بعد أبيه تهنئة بسلطته وتعزية له عن أبيه، تعد من فرائد الشعر العربي، وفيها يقول:

هناءٌ محا ذاك العزاء المقدَّما ... فما عبسَ المحزونُ حتى تبسَّما
ثغورُ ابتسام في ثغورِ مدامع ... شبيهان لا يمتاز ذو السَّبْق منهما
مليكان هذا قد هَوى لِضريحِه ... برغمي وهذا للأسَّرة قد سَما
كأنَّ ديار الملك غابٌ إذا انقضَى ... به ضَيْغَمٌ أنْشا به الدهرُ ضَيْغَما
فإن يَكُ من أيوبَ نجمٌ قد انقضى ... فقد أطلعتْ أوصافُك الغُرُّ أنجما
وإن تك أيامُ المؤيد قد مضَتْ ... فقد جدَّدتْ عُلْياك وقتًا ومَوْسماً
وهو الغيثُ ولّى بالثَّناء مشَّيعًا ... وأبقاك بحرًا بالمواهب مُنْعما

وعلى هذا النحو تمضي تهنئة الأفضل جامعة بين النقيضين في كل بيت: بين المدح والرثاء، وفي ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحدة ذهنه وذكائه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه: وهي سهولة تتمم سهولة أشعار ابن سناء الملك، بل سهولة أشعار المصريين عامة، سهولة تقترن بعذوبة، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تقترن به عن حلاوة، فقالوا إن أشعاره سكر أو قطر نبات.

وله في مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين:

قومٌ لَذِكراهم على صُحُف العُلا ... أَصْلُ الفَخارِ وكلُّ ذكْرٍ مُلْحَقُ
الملكُ بعضُ ديارهم فينزلوا ... والنجمُ بعضُ جدودهم فليرتقوا
إن يَبْقَ ماضيهم على سُنَنِ الوَفا ... فلأنهم ببقاء أفضلهم بَقُوا
ملأتْ مواهُبه القلوبَ مهابةٌ ... فالقلبُ قبل الطرَّف فيما مُطْرِقُ
وكأنما أقلامُه بسوادها ... غربانُ بَيْنٍ في الخزائن تِنعَقُ

لا عيبَ فيه سوى العزائم قصَّرتْ عنها الكواكبُ وهي بعدُ تحلَّق

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب في القصيدة تحس كأن الألفاظ يستدعى بعضها بعضا مع جمال التصاوير فالقلب مطرق قبل العين هيبة، والأقلام كأنها غربان فراق لخزائن الأمير ما تزال تنعق لتعلو الكواكب في تحليقها المتغلغل في الفضاء، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغيرهم إنما هو محلق بفخرهم. وكان قد خرج مع الأفضل في رحلة صيد، فوصفها في أرجوزة طويلة نيفت على مائة وستين بيتاً، وصف فيها رياض حماة ثم أطنب في وصف القنص بالشواهين والصقور والكلام والبندق بمثل قوله:

وكلُّ شاهينٍ شهيَّ المُرْتَمَي كبارقٍ طار وصَوْبٍ قد هَمَا (٥٥٢)

بينا تراه ذاهبا لصيدهِ معتصما بأَيْدهِ وكيدهِ (٥٥٣)

حتى تراه عائداً من أفْقِه ملتزماً طائرَه في عُنْقِه

وكلّ صقرٍ مُسْبل الجناح مواصلُ الغدوَّ والرَّواح (٥٥٤)

ذو مقلةٍ لها ضرامٌ واقِدُ يكاد يَشْوِي ما يصيد الصائد

كأنما المخلبُ منه مِنْجَلُ لحصْد أعمار الطيور مرسل

وكل منسوبٍ إلى سَلوقِ أهْرتَ وثاب الخُطا ممشوقِ (٥٥٥)

طاوي الفؤاد ناشر الأظافرِ يا عجبًا منه لطاوٍ ناشرِ

يعضّ بالبيض ويخطو بالقنا ويسبق الوهم لإدراك المنى

---

(٥٥٢) الصوب: المطر. همى: سال.

(٥٥٣) الأيد: القوة.

(٥٥٤) مسبل: مرسل

(٥٥٥) سلوق تنسب إليها كلاب الصيد السلوقية. أهرت: واسع الشدق.

وإنما تمثلنا بهذه الأبيات جميعها من الأرجوزة لندل على أن أرجوزة الطرد والصيد المليئة بالألفاظ الغريبة عند أبي نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية، والأبيات محملة بصور بديعة، فمقلة الصقر كأنها شعلة نار ومخلبه كمنجل يحصد من الطير الأعمار، وكل كلب سلوق يعض بأسنانه الحادة ويخطو بسيقان كأنها القنا أو الرماح القاتلة. وختم الأرجوزة بمديح الأفضل وبحق سماها: "نظم السلوك في مصايد الملوك".

وممدوحه الثالث السلطان الناصر حسن، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة. وليس في مديحه له الحرارة التي ألفناها في مديح الأفضل وأبيه المؤيد، وقد يكون ذلك لتقدم سنه، وله بقول:

يا ناصرَ الدين والدينا لقد نفذتْ ... أقلامُ مدحك في الدنيا بسلطانِ
دانتْ لك الخلقُ من بدوٍ ومن حضَرٍ ... وفاض جودُك في قاصٍ وفي داني
هذي المدائنُ من أقصى مشارقها ... لمنتهى الغرب في طوع وإذعان

وله وراء مديح السلاطين والأمراء والعلماء والكتّاب مديح نبوي رائع. وبينه وبين صلاح الدين الصفدي محاورات ومراسلات ومعاتبات، وأرسل إليه الصفدي قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس، مفتتحا لها بقوله:

أفي كل يوم منك عتبٌ يسؤني ... كجلمود صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلِ

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه في كتابه "خبز الشعير" السالف. وصنع ابن نباتة صنيعه فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس استهلَّها بقوله:

فطمتَ ولائي ثم أقبلتَ عاتباً أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ

وابن نباتة كثير الشكوى في شعره من بؤسه ورقة حاله، وربما صدق ذلك على أيامه بل لقاء السلطان المؤيد الذي غمره بنواله، وربما كان لكثرة عياله أثر في ذلك، بل إنه يعلن هذه الكثرة في مثل قوله:

لقد أصبحتُ ذا عُمْرٍ عجيبٍ أقضّي فيه بالأنكاد وقتي
من الأولاد خمسٌ حول أمٍّ فواحَرباه من خَمْسٍ وسِتّ

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر، وإنما يريد أم عياله، ويسميها ستّه أو سيدته. وكان مؤزّأً، حتى ليقول ابن تغري بردي في ترجمته بالمنهل الصافي إن كثيرين من أولاده توفوا في سن الخامسة والسادسة والسابعة، فكان يألم لهم ويرثيهم مراثي كثيرة، وله رثاء حار في السلطان المؤيد وابنه الأفضل. ويقول الشوكاني: هو أشعر المتأخرين ولاسيما في الغزليات.

عبد الله (٥٥٦) الشبراوي

من بيت علم وجلالة، كما يقول الجبرتي، ولد سنة ١٠٩٢ ومضى في نعومة أظفاره يحفظ القرآن الكريم، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعي، وسرعان ما ظهرت براعته، فأملى وحاضر الطلاب. واعترف له الجميع بالفضل والتعمق في الشريعة والعلوم الدينية، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر في سنة ١١٣٧. وكان له جاه رفيع ومنزلة عظمى عند الأمراء ورجال الدولة، وكانت كلمته

---

(٥٥٦) انظر في ترجمة الشبرواي سلك الدرر ٢/ ١٠٧ وتاريخ الجبرتي ١/ ٢٠٨ وراجع في أشعاره الجبرتي ١/ ٧١، ١٤٤، ١٧٦، ٢١١.

لديهم نافذة وشفاعته مقبولة. وصار لأهل العلم في مدة مشيخته للأزهر مقام علىٌّ وهيبة وتجلّة عند الخاص والعام، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان في الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزو بدر والإتحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألطاف في مدائح الأشراف، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم. يقول الجبرتي: "له ديوان يحتوي على غزليات وأشعار ومقاطيع مشهور بأيدي الناس". وما زال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة.

وللشبراوي مدائح في ولاة مصر العثمانيين، وأهم وال دبج فيه مدائحه عبد الله الكبورلي أو الكبوري لأوائل العقد الخامس من القرن، وكان جديراً حقاً بمديحه له، إذ يقول الجبرتي عنه: "كان خيراً صالحاً منقاداً إلى الشريعة أبطل الخمارات والمنكرات" ويقول "إنه كان من أرباب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب" ويذكر أن للشبراوي فيه مدائح طنانة، وفيه يقول:

سليلُ المكرمات ابنُ الكبوري ... كريمُ الطبع والأصل الشَّهير
أقام العدلَ في مصرٍ وأحْيَا ... معالمه بها بعدَ الدُّثُورِ
وإن لمعتْ صَوارمُه بأرضٍ ... تسارعت العصاةُ إلى القبورِ
وإن حادثتَه في العلم تَلْقَى ... بحوراً مَوْجُها درُّ النُّحورِ
وإن ساومتَه شعرًا فحدَّثْ ... عن ابن أبي ربيعةَ أو جَريرِ
وإن تسمعْ تلاوتَه تجِدْهُ ... حكى داودَ يلهج بالزَّبورِ
أدام اللهُ دولته بمصرٍ ... ومتَّعنا به دهر الدهورِ
وأنقذنا به من كلَّ كرْبٍ ... وكفَّ بعزمه أهلَ الفجورِ

ونسيج القصيدة جيد، والشبراوي يمدح الكبوري بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل الذي لا تصلح حياة الأمة بدونه، وبنوه بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوه بشعره ونثره. ونوابغ الكتّاب من أمثال الحريري. وكثرت منذ زمن المماليك تقاريظ الكتب والمصنفات الأدبية والبلاغية، وللشبراوي من تقريظ لبديعية وشرحها لعلي بن تاج الدين:

أذاك ثَغْرُ تبسَّمْ ... أم ذاك لُطْفُ تجسَّمْ
أم روضةٌ قد تَغَنَّي ... شُحْرورُها وترنَّم
أم الصَّبا حين هَّبت ... أزالت الهمَّ والغَمّْ
قد كنت أعتب دهري ... وأحسب الدهر أعْقم
حتى رأيتُ عجيبًا ... من فضلك الباهر الجَمْ
فكلُّ لفظك لُطْفُ ... وكلُّ معناك محكم

والتقريظ طويل إذ تحوَّل به الشبراوي إلى مدحة يشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه وفهمه كما يشيد بنثره وشعره وذكائه وبراعته. وكان من عادة الشعراء حين يتولى أمير أو يتوفى هو أو بعض العلماء والأدباء أن ينظموا أبياتاً في تلك المناسبة، إذا حُسبت حروف الكلمات في شطرها الأخير بحساب الجمَّل أرَّخت لسنة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك. وكان الشبراوي يشارك في هذا الصنيع، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوي شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة:

سألتُ الشعر هل لك من صديقٍ ... وقد سكن الدَّلنجاويُّ لَحْدَهْ
فصاحَ وخَرَّ مغشيًّا عليه ... وأصبحَ ساكناً في القبر عنده
فقلتُ لمن أراد الشَّعْرَ أقْصرْ ... فقد أرخَّتُ: ماتُ الشَّعْرُ بعده

وللشيخ الشبراوي بعض غزليات رقيقة، كان يفرد لها أحياناً مقطوعات قصيرة، وأحياناً يجعلها في مقدمات مدائحه على عادة الشعراء السابقين، ومن قوله في مقدمة إحدى مدائحه لعبد الله الكبوري:

أعِدْ خَبر العُذَيبِ وساكنيهِ ... وكرِّرْ طيبَ ذكرِهُم عليَّا

فإنَهمُ – وإن هجروا وصَدُّوا ... أحبُّ الناس كلَّهم إليَّا

وواضح أن صياغة الشبراوي جيدة، وفي شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لا تزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة.

obeikandi.com

٥

شعراء المراثي والشكوى

تنشط الرثاء في مصر من قديم، ونلتقي به زمن الولاة في العهد الأموي، ولعل أهم وال رثاه الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان، وكان – كما مر بنا – ممدَّحا، وتصادف أن توفي بعد وفاة ابنه الأصبغ بنحو شهر، فبكاهما الشعراء، وسجل الكندي بكاءهم لهما في كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فار بمصر وجيش العباسيين يطارده، وكان عبد العزيز قد تأنق فيها، وكأنما عَزَّ على مروان أن تصير للعباسيين.

قِفْ وَقْفَةً بِفناء باب السَّاج ... ونمضي في زمن الولاة وتلقانا في كتاب

وربوع قوم أُزْعجوا عن دارهم ... بعد الإقامة أيما إزعاج

فانظُر إلى آثارهم تلقى لهم ... علما بكل ثَنِيَّةٍ وفِجاج (٥٥٩)

ولسعيد القاصّ مرثية طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندي(٥٦٠) في كتابه الولاة والقضاة، واقتطف بعض أبياتها ابن تغري بردى وأنشدها ما أنشد من مراثي الشعراء للدولة وما كانت أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة، ومن قول ابن أبي هاشم مخاطباً القصر وقد خلا من سكانه:

---

(٥٥٧) النجوم الزاهرة ٣/ ١٤٠ وانظر الولاة والقضاة ص٢٥٢.

(٥٥٨) باب الساج: أحد أبواب القصر.

(٥٥٩) الثنية: الطريق في الجبل، والفجاج. الطرق. وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل.

(٥٦٠) الولاة والقضاة ص ٢٥٣.

بالله عندك عِلمٌ من أحبَّتنا أم هل سمعتَ لهم من بعدنا خبرا

وتكاثر الشعراء – كما مَّر بنا في غير هذا الموضع – لعهد الدولة الإخشيدية، غير أنهم لم يبكوها حين دخل جوهر الصقلي مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك إلى أن مدة الإخشيد لم تطل، وخلفه ابنه أنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه علي حتى سنة ٣٥٥ وكان كافور مدبر مملكتهما، ولم يكن لهما من السلطان شيء. وخلف علياً كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفي فخلفه أحمد بن علي بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة، واضطربت أمور مصر اضطراباً شديداً، ولم يتداركها الخليفة العباسي ببغداد، وسرعان ما خلت رايات المعز الفاطمي بقيادة جوهر، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة فلم يبكها أحد من شعرائها على نحو ما بكوا الدولة الطولونية.

وتلقانا في أوائل الدولة الفاطمية مراث مختلفة لتميم بن المعز أول خلفائها بمصر، وكان أكبر أولاده، وكان المظنون أن يتخذه ولي عهده، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله، حتى إذا توفي مبكراً سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذي تلقب بلقب العزيز، ولتميم مرثية في أخيه عبد الله مطلعها:(٥٦١)

كل حيٍّ إلى الفناء يصيرُ والليالي تَعِلَّةٌ وغرورُ

ويبكي شبابه بدموع غزار، وما يلبث القدر أن يلم بأبيه المعز سنة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقده، وهي شيء طبيعي لتنحيته له عن العهد. ويتوفى أخوه عقيل عن ثلاثين عاماً، ويبكي فيه الحسين الشهيد وآباءه الفاطميين.

---

(٥٦١) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (طبع دار الكتب المصرية) ص١٤٧.

ويبكي جارية له بكاء فيه غير قليل من اللهفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول، ويبكي بالمثل قينة مغنية. وله في الحسين مرثية رائعة، وهو يبكيه بكاءً مؤثراً قائلاً.(٥٦٢)

نحروه غير مذمَّم نَحْرَ الهَدايا للضَّحِيَّهْ

ويصور موقعة كربلاء وما سفك فيها من دماء البيت العلوي، ويصف موكب النساء اللائي كن مع الحسين وهنّ مشهَّرات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمهن أو يشفق عليهن، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار، والمرثية تكتظ بالأنات واللوعات الممضة. وتلتقي بالمسَّبحي مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان في ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأم ولده، وفيها يقول.(٥٦٣)

ويا ليتني للموت قُدِّمتُ قبلها وإلا فليتَ الموت أذْهَبنا معا

وتكثر مراثي الشعر لخلفاء تلك الدولة، ومن ذلك مرثية أبي المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي للمستنصر، إذ يقول:(٥٦٤)

وليس رَدَي المستنصر اليوم كالرَّدَى ولا أمْره أمر يقاسُ به أمْر
وقد بكت الخنساء صخرا وإنه ليبكيه من فَرْط المصاب به الصَّخْرُ

---

(٥٦٢) الديوان ص ٤٥٥ وما بعدها.

(٥٦٣) ابن خلكان ٤/ ٣٧٨.

(٥٦٤) النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣.

وقلما مات وزير في العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا في الدولة، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس الدمياطي في مرثية:(٥٦٥)

يا فاجعةً هي في الجنان مسرَّةٌ ... لقدومهِ تختال في غُرُفاتها
إن كان في الدنيا عليه مأتمٌ ... فأراه عُرْسَ الحُورِ في جَنَّاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه الدولة لم يبكها المصريون ولا ودعوها، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة في الغلو، وكان حكمها قد فسد فساداً شديداً على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عمارة اليمني الذي ترجمنا له في الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربي. ولعل بطلا لم يبكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين محطم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، وقد أقيمت عليه المآتم في غير بلد من البلدان العربية، ورثاه كثير من الشعراء، من ذلك قول العماد الأصبهاني في رثائه:(٥٦٦)

لا تحسبوهُ مات شخصًا واحدًا ... قد عمَّ كلَّ العالمين مَماتَهَ
لو كان في عصر النبيِّ لأُنْزِلَتْ ... في ذِكْرِهِ من ذكرِهِ آياتُهُ
يا راعيا للدين حين تمكنتْ ... من كل قلبٍ مؤمنٍ روعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائما ... رضوانُ رَبَّ العَرْش بل صلواتُه

وهي مرثية طويلة في مائتين وثلاثين بيتاً، صور فيها جهاده في الدين واستبساله في حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم في

---

(٥٦٥) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/ ٢٣١.

(٥٦٦) النجوم الزاهرة ٦/ ٦٠ وانظر خاتمة كتاب البرق الشامي.

الشام ما حقاً لهم محقاً ذريعاً. ويتوفى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مر بنا في غير هذا الموضع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمه العادل أن يستولي منه على عرش مصر، ويعمل على تعفية آثار العزيز ويبكي القاضي الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطباً القصر.(٥٦٧)

وكم قد حَجَجْنا فيك للمجدِ كعبةً ... وكم قد أقمنا فيك للحج موسعاً
وكم قد وجدنا فيك رأفةَ راحةٍ ... تقَبَّلُ إذ تُعطي حَطِيمًا وزَمْرما

ولابن سناء الملك مراث مختلفة في أصدقائه وأقربائه وأهله، وله ندب رائع في أبيه، تنهمر فيه دموعه، وتنسكب، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى ممضة، وما يزال يندبه ويبكيه قائلاً:(٥٦٨)

ويا أرضَه إن ينكسفْ بكِ بَدْرهُ ... فما برحتْ في الأرض تُكْسَف أقمارُ

وبنفس اللوعة والحرقة لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا في عينه، ويحس كأنما كان في فردوس معها من فراديس الجنان وأخرج منه إلى غير أوبة يقول:(٥٦٩)

لهفَ نفسي عليك ياما بقلبي ... منك يا طول حسرتي وعنائي
كنتُ في جنَّةٍ فأُخرجتُ منها ... واستعادَ العطاءَ ربُّ العطاء

وكلمة "ياما" في الشطر الأول من كلمات العامية المصرية ومعناها كثير. ويلقانا بنفس اللهفة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضيق والوحشة في رثائه

---

(٥٦٧) ديوان القاضي الفاضل (نشر يدوي) ص٣٤.

(٥٦٨) ديوان ابن سناء الملك (طبعة حيدر آباد) ص٣٢٣.

(٥٦٩) الديوان ص٣ وما بعدها.

لجارية شابة، اختطفها منه الموت دون شفقة أو رحمة، ويظل يئن ويسكب دموعه إلى أن يقول:(٥٧٠)

وآنسني من بعدها طولُ وحشتي ... وضاجعني في مضجعي بعدها كربي
أيا تُرْبُ ما أنصفتَ نَضْرَةَ غُصْنِها ... أهذا صَنِيعُ التُّرْبِ بالغُصُن الرَّطْب

ويشتهر ابن النبيه بمرثية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهي من بدائع المراثي، إذ يعزى الناصر عن ابنه في أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله:(٥٧١)

الموتُ نقَّادٌ على كفِّهِ ... جواهرٌ يختار منها الجِيادْ
والمرءُ كالظلِّ ولابُدَّ أن ... يزول ذاك الظِّلُّ بعد امتداد

ولا يموت سلطان أيوبي بمصر حتى يندبه الشعراء، وممن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع، وخلفه ابنه توران شاه ففتك بالصليبين فتكاً ذريعاً، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيراً، غير أن مماليكه لم يلبثوا أن فتكوا بالبطل: بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصري من مثل قول ابن مطروح:(٥٧٢)

يا بعيدَ الليلِ من سَحَرِهْ ... دائما يبكي على قَمرهْ
خَلِّ ذا واندب معي ملكا ... ولَّتِ الدنيا على أثره

---

(٥٧٠) الديوان ص٦٢.

(٥٧١) ديوان ابن النبيه (تحقيق عمر الأسعد) ص١٠٤ وما بعدها.

(٥٧٢) فوات الوفيات ١/ ١٨٥.

وحقًّا ولَّت دنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها المضيئة، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر. وأول سلاطينهم العظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي سحق فيها التتار، ودفع سيولهم إلى الوراء حتى حلب فالعراق. وله بعد ذلك بلاء رائع في حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام. حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيي الدين[٥٧٣] بن عبد الظاهر:

هذا الذي هزمَ التتارَ فأصبحوا ... تغتالهم عند الكرى الأحلام
هذا الذي قهر الفرنج فكلّهم ... تُرْديهم من رُعْبِهِ الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر في زمن المماليك إلا ويبكيه الشعراء.

ومرَّ بنا الحديث عن ابن نباتة وممدوحه السلطان المؤيد الذي دبج فيه غرر المدائح، حتى إذا مات رثاه بمراث طنانة وفيها يبكيه بكاء حارا من مثل قوله في إحدى مراثيه:

نَعَي المؤيَّدَ ناعيهِ فوا أسفا ... للغيث كيف غدتْ عنا غَواديهِ
وارَوْعتا لصباح من رِزيَّتِهِ ... أظنّ أن صباح الحَشْرِ ثانيه
ليت الحِمامَ حَبَا الأيامَ موهبةً ... فكان يفُنْي بنى الدنيا ويبقيه
ليت الأصاغر يُفْدَي الأكبرون بها ... فكانت الشُّهْبُ في الآفاق تَفْدِيه

وهو تأبين ممزوج بندب وأنين، وحسرة ما بعدها حسرة، حتى ليتمنى لو مات الناس جميعاً فداء للمؤيد بل يتمنى لو كانت الشهب تستطيع أن تفديه.

---

(٥٧٣) انظر تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون لمحيي الدين بن عبد الظاهر (نشر وزارة الثقافة والإرشاد بمصر) ص٢٥.

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولاتهم ولشعرائها فيهم وفي كبار الموظفين حيث يتوفون مرات كثيرة، من ذلك قول الشيخ محمد الغمري في رثاء الأمير إسماعيل بن إيواظ المتوفى سنة ١١٣٦ للهجرة:(٥٧٤)

أفي أمانٍ وسيفُ الأمن قد غُمدا ... وبدرُ أفْق سماء العدلِ قد فُقدا
وشمسُ نصرِ عباد الله قد كُسفَتْ ... ودولة العَّز ماتتْ بالذي لِحُدَا
كم قد أغاث فقيرًا من ظُلامته ... وأبدل الجور عدلا والفسوقَ هُدَى

وتكثر مراثي العلماء الأعلام وتكتظ بمراثيهم كتب التراجم، وخاصة منذ عصر المماليك، من ذلك قول(٥٧٥) عبد الباسط بن خليل الحنفي، في رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطي حين توفي سنة ٩١١:

مات جلالُ الدين غوثُ الوَرَى ... مجتهدُ العصر إمامُ الوجودْ
فيا عيونُ انهملي بعده ... ويا قلوبُ انْفَطِري بالوَقود

ويورى الجبرتي أنه لما مات الشيخ محمد العشماوي سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت السيد حسين الأدكاوي قصيدة أنشدت وقت الصلاة عليه مطلعها:(٥٧٦)

ما بين حرقة أدمعي وتولُّهي ... نارٌ يؤجَّجها لهيبُ تولُّهي
يا أرضُ مِيدِي يا سماء تشقَّقي ... يا شمسُ نوحي يا نجومُ تأوَّهي

والمبالغة واضحة في البيت الثاني وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدوداً دائماً إلى قيثارات الشعراء

---

(٥٧٤) الجبرتي ١/ ١٢١.

(٥٧٥) بدائع الزهور لابن إياس ٣/ ٦٣.

(٥٧٦) تاريخ الجبرتي ١/ ١٨٩.

يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحظوظ التي كتبت عليهم فيها، ومن نزول المصائب التي تعصف بهم، من مثل قول تميم بن المعز:(٥٧٧)

أما والذي لا يملك الأمَر غيرُه ... ومَنْ هو بالسَّر المكتَّم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلمًا ... لإعلانُها عندي أشد وآلم
وصبرتُ عن الشكوى خياءً وعفّةً ... وهل يشتكي لَدْغَ الأرام أرقُم(٥٧٨)
وبي كلُّ ما يُبْكي العيونَ أقلُّه ... وإن كنت منه دائما أتَّبسمُ

وكان تميم يعيش في نعيم لأنه ابن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفي صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزيز الفاطمي. وعاش تميم يتجرع مرارة هذه الغصة دون أن يستطيع التفوه بكلمة، إلا مثل هذه الأبيات التي كان يتنفس بها عما يجثم في دخائله من ألم مرير. ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكواهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانيهم كقول ظافر الحداد:(٥٧٩)

ولي همَّةٌ تَبْغي النجومَ وحالُة ... تصحَّف ما تبغيه فَهْوَ لنا ضِدُّ
إذا رفعتْني تلك تخفضُ هذه ... فكلُّ تناهٍ في إرادته الحَدُّ(٥٨٠)
فما حالُ شَخْصٍ بين هاوٍ وصاعدٍ ... ولسي له عن واحد منهما بُدُّ

---

(٥٧٧) الديوان ص٣٩٨.

(٥٧٨) الأرقم: الأفعوان.

(٥٧٩) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ٣.

(٥٨٠) الحد: المنع.

تولتنيَ الأرْزاءُ حتى كأنما فؤادي لكفَّيْ كلَّ لاطمةٍ خَدُّ

فهمته ما تزال تصعد به حتى يصافح النجوم وحظه ما يزال يهبط به حتى يهوي إلى الدَّرْك الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه في أرجوحة ما يزال صاعدا هابطا وما تزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيفاً.

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدام من أهل المحلة شمال طنطا ويقول العماد: كان منحوس الحظ غير مبخوت، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت، وينشد له:(٥٨١)

لقد بكرتْ تلومُ على خمولي كأن الرزقَ يجلبُه احتيالي
وكم أدليتُ من دَلْوٍ ولكنْ بلا بَلل يُرَدُّ على قَذالي (٥٨٢)
وكم علَّقتُ أطماعي رجاءً بخلَّبِ بارقٍ ووميضِ آلِ
ولا أنا بالكفافِ النَّزْرِ راضٍ ولا أنا عن طِلاب الكُثْرِ سالِ

فصاحبته تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق، ومفتاحه ليس في يده، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فعادت دلاؤهم ملاء، وارتد عليه دلوه فارغاً، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وهو مع ذلك لا يزال يطمع في الكثير وكان حريًّا به أن يرضى بالنزر القليل.

---

(٥٨١) الخريدة ٢/ ٤٦.

(٥٨٢) القذال: القفا.

وتخفُّ الشكوى على ألسنة الشعراء في زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية، إلا في بعض لحظات تعسة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك.(٥٨٣)

يا خَيْبَةَ الحَرِّ الذي	لم يلق فوق الأرض حُرَّا
وإذا اشتكَى فقرًا أسا	ل الدمعَ من عينيه تِبْرا
والخَلْقُ تذري الدمع ما	ءً وهوْ يُذْري الدمعَ جَمْرَا
وإذا تملَّكتِ اللئا	مُ فإن موتَ الحَرِّ أحْرَى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوماً، فقد كان يعيش في بحبوحة من الترف والنعيم، ولذلك نظن أنه قال قصيدة هذه الأبيات في لحظة من لحظات غضبه، وهي فعلاً أبيات عارضة في ديوانه الضخم.

ويعود الشعراء إلى الشكوى في أيام المماليك والحديث عن بؤسهم، وكانوا يمزجون هذا الحديث بخفة الظل التي عرف بها المصريون، حتى لتصبح الشكوى ضرباً من الفكاهة أحياناً على نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال، وسنترجم لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة. ويأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء، وفي مقدمتهم ابن نباتة الذي أكثر – كما أسلفنا – عن الحديث عن كثرة عياله كقوله لأحد ممدوحيه:

يا سَّيدي دعوةُ ذي حالةٍ	أحالها الدهرُ وعدوانُهْ
تفليسُه في الشام بعد الغنى	يقضي بأن القلب حَرَّانُهْ
فارقَ أولادًا وأهلا وما	تحمَّلتْ للبَيْن أظعانُهْ

(٥٨٣) الديوان ص٣٢٨.

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والضنك وضيق العيش، وقد فارق أولاده وأهله يبتغي أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنياً ثرياً أوتى بسطة من الرزق. ويردد ابن نباتة ذلك كثيراً في أشعاره. وراءه كثيرون في زمن المماليك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة الحياة وعيشها البائس المضني. وساعد على ذلك أن المماليك لم يرعوا الشعراء في زمنهم رعاية الحكام من قبلهم، وأنهم فلما كانوا يسبغون عليها عطاياهم، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحياناً كان نزرا قليلاً، فكان طبيعياً أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر، وأن يصبوا نقمتهم على الدهر والزمان. ثم حلت الحقبة العثمانية، فزادتهم إيغالاً في البؤس واليأس والشكوى المريرة. ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند بعض شعراء الرثاء والشكوى في المراحل المختلفة لهذا العصر.

علي بن النضر(٥٨٤)

من أهل الصعيد كان نحوياً أديباً وروى عنه ابن بَرّي وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب سيبويه، وكان متصرفاً في علوم كثيرة، وهو أحد قضاة الصعيد النابهين، تولى قضاء الصعيد وإخميم في زمن الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ – ٥١٥هـ). ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت مبكرة، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكياً شعراء عصره. فمدح كثيرين من أعيان الصعيد وفي مقدمتهم بنو الكنز أعيان أسوان. ثم قصد بمديحه

---

(٥٨٤) انظر في ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبي الصلت أمية في نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون (المجموعة الأولى) ص٤٠ وما بعدها وخريدة القصر (قسم شعراء مصر) للعماد الأصبهاني ٢/ ٩٠ والطالع السعيد ص٢٢٠ والبغية للسيوطي ص٣٥٣.

الأفضل فرفع منزلته وعينه قاضياً للصعيد، وفيه يقول أبو الصلت في رسالته المصرية التي كتبها عن شعراء مصر وأدبائها، وقد افتتحها بذكره قائلاً: "من الأفاضل الأعيان، المعدودين من حسنات الزمان، ذو الأدب الجم والعلم الواسع، والفضل الباهر والنثر الرائع، والنظم البارع، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولي، والرتبة الأولى" ويبدو أنه كان واسع الثقافة. ويقول الأدفوي صاحب الطالع السعيد: "أكثر شعره في تشكي الزمان والإخوان". وكان قد قصد الأفضل في أول الأمر راجياً خدمة عنده أو ولاية أمله فيه وضاع رجاؤه، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الخيبة والحرمان:

بين التعزَّز والتذلل مسلكٌ ... بادي المَنار لِعَيْنِ كل موفَّقِ
فاسلكْه في كل المواطن واجتنبْ ... كِبْرَ الأبيِّ وذلَّةَ المتملِّق
ولقد جلبتُ من البضائع خيرَها ... لأجلَّ مختارٍ وأكرم مُتَّق
ورجوتُ خَفْضَ العَيْش تحت رِوَاقه ... لابدَّ إن نفقتْ وإن لم تَنْفق
ظنًّا شبيها باليقين ولم أخَل ... أن الزمان بما سقاني مُشْرِقي (٥٨٥)
لأقارعنَّ الدهَر دون مروءتي ... وحُرِمتُ عزَّ النَّصْر إن لم أَصدُقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصعِّروا خدهم كبراً، وأهم من ذلك أن لا يُسيموا أنفسهم ذلك الملق والهوان، وليتخذوا منه ومما صنع به الأفضل عبرة وعظة، إذ قدم له بين يدي ما أمله منه قصيدة بديعة من قصائده، فكان جزاءه خيبة ما بعدها خيبة، ومع ذلك فهو يمسك نفسه، إذ هي أكبر من أن تنكسر، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروءته وعزة نفسه. وفزع إلى غير قليل من الزهد والقناعة يحض

(٥٨٥) مشرقي: جاعني أغص بما سقاني.

عليهما ويذم الضراعة، متأسفاً على امتهان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله:

لَهْفي لملكِ قناعةٍ لو أنني ... مُتِّعْتُ فيه بعِزَّةِ المتمَّلكِ
ولكَنْزِ يأسٍ كنت قد أحرزتُه ... لو لم تَعِثْ فيه الخُطُوبُ وتَفْتكِ
آلَيْتُ أجعلُ ماءَ وجهي بعده ... كدم يُهِلُّ به الحجيج بِمَنْسكِ
لا أنشأتْني الحادثاتُ لمثلِها ... ورُميتُ قبل وقوعها بالمهلكِ

لقد ضاع ملك قناعة كان هنيئاً به متمتعاً فيه بعز سلطانه، وأضاع معه كنز يأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مغتبطاً به سعيداً، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل وما صنعه، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذله، ويتجه إلى ربه داعيا ضارعاً بمثل قوله:

يا مستجيبَ دعاءِ المستجيرِ بهِ ... ويا مفَرِّجَ لَيْلِ الكُرْبَةِ الدَّاجِي
قد أُرْتجِتْ دوننا الأبوابُ وامتنعتْ ... وجَلَّ بابُك عن مَنْع وإرْتاج
تخافُ عَدْلَك أن يجري القضاءُ بهِ ... ونرتجيك فكُنْ للخائف الراجي

فقد أغلقت أبواب الرجاء من دونه، وأظلمت الدنيا من حوله، وغرق في كرب وغم، وأخذه اليأس من كل جانب، فلا أمل، بل قنوط مقيم، حتى ليخشى على نفسه من أن يغلق الله عنه بابه، وإنه ليمتلئ خوفاً ورجاء. ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل:

يا نفسُ صبرًا واحتسابا إنها ... غمراتُ أيام تمُرُّ وتَنْجَلي
لا تيأسي من رَوْح ربِّكِ واحْذَرِي ... أَنْ تستقِرَّي بالقنوط فتُخْذلي

إنه ليتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذي يملؤها شقاء وعناء ولوعة، فيخفف عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تيأس من روح ربها فإنه لا ييأس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله.

وكان علي بن النضر يجيد الرثاء كما يجيد الشكوى من الزمان وأهله، وله مرثية بديعة في إبراهيم ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٤٧٢ للهجرة وهو جد المهذب بن الزبير الشاعر المار ذكره، استهلها بقوله:

يا مُزْنُ ذا جَدَثُ الرَّشِيدِ فقِفْ معي ... نَسْفَحْ بساحِته مزادَ الأَدْمُع (٥٨٦)

وامْسَحْ بأَردان الصَّبا أركانَهُ ... كي لا يُلمَّ به شحوبُ البَلْقَع

وبودَّ نفسي لو سَقَيْتُ ترابَهُ ... دَمَ مُهْجَتِي ووقيتُه بالأَضْلُع

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب الممطر محاولاً أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه، بل ليسفحا معاً عليه قرباناً من الدموع، ويتوسل غليه أن يمسح بأكمام الصبا أركانه، حتى يظل ناضراً لا يلم به شيء من شحوب البلقع أو القفز من حوله جدثه، وكان يود لو فَدَاه بروحه وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعه، ويخاطب قبره ملتاعاً بقوله:

لتنفَّسَتْ فيك الصَّبا مفتوقةً ... بنسيم مِسْكِ رياضها المتضوِّع

أو ما عجبتَ لِطودِ عزٍّ باذخ ... مُسْتَوْدَع في ذي الثلاثِ الأذْرُع

---

(٥٨٦) مزاد: جمع مزادة وهي القربة.

ولخدَّ مَنْ وَطئَ الكواكبَ راقيًا كيف ارتضَى من بعدها بالَيْرمَعَ
ولقد وقفتُ على ربوعك شاكيًا وبها الذي بي من أسًى وتوجُّع

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصبا العطرة بمسك الرياض ذكي الرائحة وأن يظل ذلك دائماً أبدا، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقياً أن يرتضي النزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة، وإنه – مثل كل ما حوله من الربوع – ليمتلئ حسرة وأسى وتوجعاً ما بعده توجع. ولعل في ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخصبة.

علي بن عَرَّام(٥٨٧)

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه، بل شاعر الصعيد قاطبة، دفعه طموحه في شبابه إلى أن ينزل الفسطاط ويأخذ عن علمائها اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين. وكان فيه ذكاء وحب للعلم وفنونه، فبرع في غير فن، وصنف تصانيف كثيرة. ويبدو أنه آثر المقام ببلدته أسوان، وله في أعيانه غير مدحة، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين في قوص وغير قوص، من مثل مبارك بن منقذ وتوران شاه. ويقول العماد الأصبهاني إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حي في أسوان، وكان لا يزال يذكرها حين يبرحها فترة في حنين بالغ، حتى ليقول في إحدى رحلاته وقد ذكرها، فكأنما نكأ جرحاً في فؤاده إذ يقول متلهفاً في العودة إليها حين نفاه بنو الكنز أعيانها إلى إسنا:

---

(٥٨٧) انظر في ابن عزام وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ١٦٥ والطالع لسعيد ص١٩٨ وحسن المحاضرة ١/ ٥٦٥.

ولا بارك الرحمنُ فيمن أزاحني عن الظل والماء الزلال الذي يجري
مَقِيلٌ ولكن أين منّيَ ظِلُّهُ وسقيا ولكني بعيدٌ عن القَطْرِ

فهو يتمنى وقت قيلولة بأسوان وشربة من مائها السلسبيل، إنها نعيمه وفردوسه الذي لا يماثله فردوس، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٠. ويقول صاحب الطالع السعيد: "لم يكن في أرض مصر من يدانيه في فضله ويضاهيه في نبله". ويشيد به وبشعره العماد الأصبهاني إشادة رائعة، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية، مما جعله يعرض منه ألواناً، ويقول: "قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق، ولفظه الرائع الشائق، ما إذا حسر(٥٨٨) سحر... ولابن عَرّام في ميدان النظم عُرام،(٥٨٩) وبابتكار المعاني الحسان غرام، ولرؤيته في إذكاء(٥٩٠) نار الذكاء فيرام... وكل سحر وخمر سوى منسوج فِدامِه(٥٩١) وممزوج مدامه حرام، اعجَبْ: بحر في الصعيد(٥٩٢) يقصد بالتيمم لمائه، ونجم في صعود السعود لا يرتقى إلى سمائه". ويتلو العماد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء، ويذكر له من قصيدة في رثاء بعض العلويين، وربما كانت من أشعاره في زمن الفاطميين، وفيها يقول:

إنما هذه الحياةُ غرورٌ كَسَرَابٍ بدا لنا في فِجاج

---

(٥٨٨) حسر: انكشف.

(٥٨٩) عرام: قوة وشدة.

(٥٩٠) إذكاء: إيقاد.

(٥٩١) القدام: ما يوضع على فم الدن لتصفية ما فيه.

(٥٩٢) الصعيد: الوجه القبلي وهي أيضاً وجه الأرض والتراب.

تَتْبع الحُلْوَ من جَنَي عَيْشها الحُلْـــ ـوِ بِمُرٍّ من الرزَّايا أُجاج(٥٩٣)

نحن فيها كمثل ركبٍ أناخوا ساعةً ثم أُرْهِقوا بإنزعاج

وتلك سنة الحياة: غرور كلها وسراب سرعان ما يزول، وحلو سرعان ما يحول مرا وملحا أجاجا، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلاً وجميعهم وقوف، كل منهم ينتظر دوره في الرحيل، فالكل راحلون إلى أجداثهم وقبورهم فهي قرارهم ومنزلهم ولا مآب له منه ولا خلاص. وله مرثية في ابن عمه هبة الله بن عَرَّام، وكان شاعراً محسناً وفيه يقول:

مَنْ لسود الخطوب غَيْرَك يُجْليـ ـها وقد غاب منك بدرٌ منيرُ

مَنْ يَحُوكُ القَريضَ مثلَك يُسْديـ ـه على خِبْرَةٍ به ويُنيرُ(٥٩٤)

ليس في العَيْش بعد فقدك خَيْرٌ حَبَّذا وافدُ الرَّدَى لو يزورُ

كان ظني إذا المنايا انتحْتنا أنني أوَّلٌ وأنت أخيرُ(٥٩٥)

كيف لي بالسلوِّ عنه وطيَّ الـ ـقلب من فقده جَوًى منشورُ

فسَقَى قبرَه نداهُ ففيهِ لِثراه غِنًى ورِيٌّ غَزيرُ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه، ولذلك يخلط ندبه بتأبينه، إذ فقد البدر الذي كان ينير في دجى خطوب الدهر وكوارثه، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذي كان ينسج خيوط نسجاً محكماً، وكأنما فقد كل نعيم في دنياه وكل خير، حتى ليتمنى

---

(٥٩٣) أجاج: شديد الملوحة.

(٥٩٤) يسدي: من السدى وهو ما يمد طولاً في النسيج. ينير: يلحم أو يجعل له لحمة وهي ما يمد عرضاً في النسيج يريد أنه يحكم الشعر إحكاماً دقيقاً.

(٥٩٥)

الموت، إذ لم يعد له بقاء بعده، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه، وقلبه منطو على نار من الجوى لا تخبو ولا تهدأ، وإنه ليذكر نداه وكرمه الذي طالما أغدقه على من حوله، ويدعو الله أن ينزله على جدثه شآبيب رحمة.

ويروى العماد لابن عرام قصيدة بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر نادبين موتاهم باكين، استهلها بقوله:

الرَّدَى للأنام بالمرصادِ ... كل حَيٍّ منه على ميعادِ
كيف يُرْجَى ثباتُ أمرِ زمانٍ ... هو جارٍ طبعا على الأضدادِ
فإذا سَرَّ ساء حَتْمًا وَيقْضِي ... بوجودٍ إلى بِلىً ونفادِ

فالموت غاية كل حي، والناس جميعاً يسقطون في قراره العميق، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ويا لها من سخرية للزمان، فإنه لا يبقى للإنسان على شيء، وحتى لو سره يوماً لساءه يوماً أو أياماً، وإنه ليسلبه كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته. ويمضي في نفسه القصيدة أو المرثية قائلاً:

نحنُ في هذه الحياة كسَفْرٍ ... ربما أُعْجلوا عن الإرْوادِ(٥٩٦)
عَرَّسوا ساعةً بها ثم نادى ... بالرحيل المجدَّ فيهم مُنادِ(٥٩٧)
كم أبٍ والهٍ بثُكْلِ بَنِيهِ ... كم يتيم فينا من الأولادِ
يدَّعِي المرءُ إرْثَ أرضٍ ودارٍ ... سَفَهًا غيرَ لائقٍ بالسَّدَادِ
وهْو موروثُها إذا كان يَبْقَى ... وَهْيَ تَبْقَى على مَدَى الآبادِ
وقُصَارَاهُ أنْ يشَّيع مَحْمو ... لاً بأكفانه على الأعوادِ

---

(٥٩٦) الإرواد: الإمهال.

(٥٩٧) عرسوا: نزلوا آخر الليل للراحة.

وما أبأس الحياة من رحلة، وما أبأس ركب هذه الرحلة، فليس لهم فيها حق في الريث والأناة، ولا في التمهل والوقوف، إنها لا تزيد عن ساعة تنزلها قافلة، وسرعان ما يصيح في ركبها مناد بالرحيل السريع، وكل من في الركب يبكي وينوح ويئن أنينًا لا ينقطع، أب يئن ويذرف الدموع مدراراً على أبنائه، وأبناء أيتام يئنون ودموعهم لا تجف ولا ترقا على آبائهم وأمهاتهم، وكأنما يقطعون جميعاً وادياً كله غصص وآلام، إنه وادي الموت يجوسون خلاله، وهم لا يدرون. وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها، وهو موروثها ومملوكها الذي سرعان ما يزول ويفنى، بينما هي باقية على كر الدهور، وما أعظمها عبرة، فكل إنسان مهما بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغيره محمولاً على أعواد، وسرعان ما يلقى عليه رداء التراب الثقيل. ويقول ابن عرام.

وإذا الأهلُ والأقارب والأحْـ ـبابُ رَاحُوا فأنت في الإثْرِ غادِ
فالقبورُ البيوتُ مضْجَعُنا فيـ ـها وما إنْ سِوَى الثَّرى من وِسادِ
كم أحال البِلَى إليه قديمًا جَسَدًا ناعما من الأجسادِ
شاهدُ الموتِ لائحٌ في جَبِين الـ ـحَيِّ منا في ساعة الميلادِ

فالكل ميت، وكل ما هناك سابق ومسبوق ورائح وغاد إلى القبور: البيوت الدائمة التي تضطجع فيها على وسائد الثرى، لا فرق بين إنسان وإنسان، فنحن جميعاً بنو الموت، ونحن جميعاً سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملقى به– طال أجله أو قصر – وراء تراب وأحجار.

ابن النقيب(٥٩٨): الحسن بن شاوَر الكناني

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين: الأيوبية والمملوكية، وكانت له عناية بالحديث النبوي. روى عنه الحافظ الدمياطي وغيره، واتصل بالأيوبيين، فعينوه في دواوينهم، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسي مؤلف كتاب المغرب حين زار مصر في أوائل العقد الرابع من القرن السابع، يقول: "اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد، فأبصرت شخصاً مجسداً من الفضائل معنوناً عن بيته – إذ ينسب إلى شاور وزير العاضد الخليفة الفاطمي – بما يبدو عليه من كرم الشمائل" وصنف كتاباً سماه "منازل الأحباب ومنازه الألباب". وفي شعره ومنزلته الشعرية يقول ابن سعيد: "هو عندي من أفراد شعراء العصر المتغلغلين في الغوص على المعاني الحائزين من غايات الإحسان ما يقصر في إطرابه عنه المثالث والمثاني" ويقول ابن شاكر: "شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللائقة المتمكنة. وهو أحد فرسان تلك الحلبة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية". وابن شاكر يقصد بالحلبة السراج الوراق والجزار والحمامي الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لخفة روحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف توريته:

أنا العُذْرِيُّ فأعذُرْني وسامحْ ... وجُرَّ عليَّ بالإحسان ذَيْلا

---

(٥٩٨) انظر في ابن النقيب: الحسن بن شاور المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص٢٥٨ وفوات الوفيات لابن شاكر ١/ ٢٣٢ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٦ وحسن المحاضرة للسيوطي ١/ ٥٦٩ وشذرات الذهب لابن العماد ٥/ ٤٠٠.

ولما صِرْتُ كالمجنون عِشْقًا كتمتُ زيارتي وأتيت ليلا

وكلمة "ليلا" في نهاية البيت الثاني لا يريد بها الليل الحقيقي إذ جاء بها تورية عن صاحبته "ليل". وهي تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديهته، ورقة حسه، وله غزل بديع سننشد به قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل. وله محاورات كثيرة مع من سميناهم من الشعراء، وكتب إليه ابن سعيد ببيتيه اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع، وهما:

أيا ساكني مصرٍ غدا النيلُ جارَكم فأكسَبكم تلك الحلاوةَ في الشَّعْرِ

وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى سوى أثرٍ يبدو على النظم والنَّثْرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعاً:

ولا تطلبن سحر البيان بأرضنا فكم فيه موسى مبطل آية السحر

ولا رقة الشعر الذي كان أولا وكيف رقيق الشعر مع قسوة الدهر

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته، منذ الثلاثينيات من عمره، ولا ندري هل ظل موظفاً بالدواوين في عهد الممالك أو أنه آثر العزلة مكتفياً بما ورثه عن آبائه؟. وأكبر الظن أنه ظل متصلاً بالمماليك ودواوين الدولة، يدل على ذلك ما رواه ابن تغري بردي، مما مر بنا في غير هذا الموضع من أنه كان حاضراً وقعة الظاهر بيبرس مع التتار على شط الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صور انتصاره تصويراً رائعاً.

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندي قبل المعركة كان في الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون في مقدمة الجيش وإنما يوضعون في مؤخرته، أو لعله إنما التفت قبل

كل شيء إلى نفسه، فتأثر وبلغ به التأثر حداً بعيداً من الإحساس بالظلم، وإذا هو ينشد في ألم بالغ:

نحن إلا قطاعةُ الأجنادِ ... وبُرَاياتُ غُرَّ هذا النادي[٥٩٩]
نحن إلا حكايةٌ وخيالٌ ... وحديثٌ لحاضرٍ ولبادي
نحن إلا غُسالةٌ لمَرَاقٍ ... لقدور تفرَّغت وزبادي
نحن إلا زُبالة ضَمَّها الزَّبَّـ ... ـالُ فوق الأكوام للوقَّادِ
جَرَّدونا فما قطعنا فردُّو ... نا – وقد أحسنوا – إلى الإغمادِ
وعُرِضْنا على بَراذينِ جيشٍ ... ما استعدَّتْ لحملةٍ وطِرادِ[٦٠٠]
ورماح لم تعتقل لطعانٍ ... وسيوفٍ ما جُرِّدتْ لجِلادِ
فَهْيَ لا فرق في يد الفارس الكَشْـ ... ـحانِ منَّا أو في يد الحداد

ويبدو أنه شكوى بلسان فريق من الفرسان، ممن وضعوا في مؤخرة الجيش الذي يقوده الظاهر بيبرس لحرب التتار يريدون أن يكونوا في أول الصفوف لمنازلة العدو التتاري ودحره دحراً لا تقوم له قائمة بعده، ويسوق ابن النقيب الشكوى في مرارة، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان متهكماً: ما نحن إلا نحاتة الأجناد بل حكاية وخيال وحديث مردد، بل غسالة لمراق بل زبالة، ولعله يبالغ في تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتياً فوضعوا في المؤخرة. على أن في شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون، ويختارون في أثناء العرض وبعد

---

(٥٩٩) القطاعة: النحاتة كالبراية.

(٦٠٠) براذن جمع برذون: بغل ضخم.

الاختبار، وهو لذلك يقول إنهم جردوهم لينظروا إلى أي حد هم سيوف قاطعة فلما لم يقطعوا ردوهم إلى الأغماد أو إلى المؤخرة، ويلقى التبعة على البغال التي ركبوها، فإنها لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة، وأيضاً فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدأ ولم تعد صالحة للنزال، فسيان هي في يد الفارس البطل منا أو في يد الحداد كي يشحذها ويزيل عنها الصدأ. وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر، في مثل قوله:

يا قُفْلَ بابِ الرَّزق يا ذي الذي ... ما زال عند الفتح قُفْلاً عَسِرْ
أفرطتَ في العُسْرِ ولابُدَّ أَنْ ... تنفشَّ أو تندقَّ أو تنكسِرْ

وهو يشعر كأن باب الرزق أغلق من دونه، وهو يعالج فتحه، ولا ينفتح، ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وضنك، ويأس من فتح هذا القفل بأي مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل في أن ينفش وتفتح أغلاقه أو يندق أو ينكسر. وتجتمع عليه الشيخوخة والعوز والإملاق، فينشد:

وجُرِّدْتُ مَعْ فَقْرِي وشيخوختي التي ... تراها فَنومِي عن جُفوني مشَّردُ
فلا يدَّعى غيري ثيابي فإنني ... أنا ذلك الشيخُ الفقيرُ المجرَّد

وحتى ثيابه نزعها البؤس عنه، فهو شيخ فقير عريان مسهد لا ينام. ولعل في ذلك كله مبالغة، وهي على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه في شيخوخته. ويبدو أن محنته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصفياء، حتى ليقول:

لا تَثِقْ من آدَمِيٍّ ... في ودادٍ بصفاءِ
كيف ترجو منه صفوا ... وهْو من طينٍ وماءِ

فطبيعي – في رأيه – أن لا يصفي إنسان لصديقه إخاء. لأنه لا يعرف الصفاء، بل هو دائماً كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء.

عبد الله (٦٠١) الإدكاوي

ولد بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتاب بها حفظ فيه القرآن الكريم، حتى إذا أتمه ذهب في طلب العلم إلى القاهرة، فحضر دروس العلماء بها في زمنه، واشتهر بأدبه وشعره، ولزم السيد علي برهان زاده نقيب الأشراف، وظل يسبغ عليه من عطاياه، وحَجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وعاد إلى القاهرة، وأقبل – كما يقول الجبرتي – على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر، ومهر وبهر، وهو في أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما. وتزوج حينئذ وأصبح صاحب عيال، وتوفي النقيب المذكور، فلزم الشيخ عبد الله الشبراوي المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة، حتى إذا توفي سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحفني، وأنشد الجبرتي بعض مديحه فيه، وله يخاطبه من قصيدة:

يا بهجةَ العصر يا منهاجَ كلِّ عُلاً ... يا مُحْيِيَ الدين بالآثار والسُّنَنِ

وظل يلازمه إلى أن توفي سنة ١١٧٨ وصَوح روض عَزه بعده إلى أن توفي سنة ١١٨٤. وله تصانيف كثيرة منها الدرة الفريدة في شرح مدحة نبوية، وهداية المتوهمين في كذب المنجمين، ومختصر شرح بانت سعاد للسيوطي ومنظومة في علم العروض

---

(٦٠١) انظر في ترجمة الإدكاري وأشعاره تاريخ الجبرتي ١/ ٣٥٢ وراجع ١/ ٢١٠، ٢١٦، ٢٦٣، ٣٤١.

والمقامة التصحيفية ضمنها ألفاظا تتغير معانيها بالتصحيف ومقامة أخرى مجونية، وبضاعة الأريب في شعر الغريب، وهي مجموعة من أشعاره. وله أيضاً تخميس بانت سعاد والدر المنتظم في الشعر الملتزم والفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتخدا، ثم أورد في خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظما ونثراً، وفيه يقول:

رضوانُ أوحدُ من تفرَّد بالعطا ... فمنائحُ الأجواد بعضُ هباتِهِ

الفارسُ المقدامُ في يوم الوَغى ... والمرهبُ الآسادِ في وثباتِه

ومن تصانيفه "الدر الثمين في محاسن التضمين". وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية.

ويورد الجبرتي قطعة من شعر الإدكاوي تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين، ونراه يستعيد قدرة الحريري في بناء الأبيات من كلمات منقوطة أخرى عاطلة أو كلها منقوطة أو كلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حروف عاطل فحرف منقوط، وكذلك في صنع أبيات تقرأ شطورها طرداً وعكساً، فهي تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين، وهو ما كانوا يسمونه "ما لا يستحيل بالانعكاس" مثل قوله:

ارْعَ لِخِلٍّ إن أَسا ... وائْسَ لِخِلٍّ إنْ عَرَا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة، وكذلك من تخميس بعض الأبيات، وتصنع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم، ولكن خفة ودون أن نصطدم عنده

بتكلف شديد، كقوله مستظهراً لمصطلحات المنطق، إذ يذكر المناطقة كثيراً المقدمات والبراهين والنتائج:

وشقائقٍ قالتْ لنا بين الرُّبا ... بمقدَّماتٍ ما بها إبهامُ[٦٠٢]

برهانُ سعدي الآن أنتج قائلا ... دَعْ وَجْنَةَ المحبوب فهْيَ ضِرَام

وله مراث مختلفة فيمن سميناهم من الشيوخ رعاته وفي غيرهم من علماء عصره، وممن رثاهم وتفجع عليهم طويلاً الشيخ حسن المدابغي المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة، وله فيه مرثيتان مطلع أولاهما:

مَضَى عالمُ العصرِ الإمامُ لربِّهِ ... حميدَ المساعي فانْدُبَنْهُ وبالغ

وفي خاتمتها ينشد:

ولما قضَى ذاك المهذبُ نَخْبَه ... وآبَ برضوانٍ من الله سابغ

دعوتُ أحبَّائي وقلت لهم قفوا ... معي عند ذا التاريخ نبكي المدابغي

ومطلع الثانية:

صبرا فذا الدهر من عاداته المحنُ ... وفي تلُّونه قد حارتِ الفِطَنُ

ويختمها بقوله:

والحورُ جاءتك بالبشرى مؤرَّخةً ... حُلِّيت من حُلَلِ الأبرارِ يا حَسَنُ

ولم ينشد له الجبرتي شيئاً من مراثيه الأخرى، وكأنه اكتفي بالإشارة إلى مرثيتيه في المدابغي، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة في رثاء نفسه وبكائها قبل موته، وفيها يقول:

ليت شعري إذا دَنَا يا رِفاقي ... أجلى ثم هَيَّئوا لي تُرابي

---

(٦٠٢) الشقائق: زهر أحمر.

واغْتَدوا بي إلى مَحَلٍّ بِهِ صَحْـ ـبي جَفَوْني وليس يُرْجَى إيابي
هل إذا غَرْبَلُوا التراب أَيَلْقَوْا ذرَّةً من عَظْمِي فيالَمصابي
وَيْحَ هذي الدنيا التي تحرق الأكـ ـبادَ قد مزَّقَتْ بِلَحْدِي إهابي
وبذاك القَفْرِ اغتديتُ رَهِينًا ليس لي من زادٍ ولا من رِكابِ

وهو يذكر ساعة الموت وقد حفر لحده والمشيعون يحملون نعشه إلى مثواه، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب، وقد بلى جسده في التراب ولم تبق من عظامه باقية. ويتساءل هل إذا فشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه في لحده. وكأنما لا يكفيها ما تصنع بالإنسان في حياته من إحراق كبده. وإنه ليندب نفسه ويبكيها وقد غدا وحيداً غريباً في قفر موحش، بل غدا حبيساً لا زاد ولا ركاب إلى يوم الحشر، وفي الحق أنه كان شاعراً مجيداً وهو يعد أنبه الشعراء المصريين في زمنه.

٦

شعراء الدعوى الإسماعيلية

مرَّ بنا – في غير هذا الموضع – أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقدية الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالاً تاماً. وقد علمت بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها في أقطار العالم الإسلامي، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفي مقدمتهم ابن هانئ وسنخصه بكلمة. وتميم بن المعز أول خلفائها بمصر يرددها في أشعاره لأخيه الخليفة العزيز، ولا نكاد نتقدم في ديوانه حتى نجده يخاطبه يقول في إحدى مدائحه:(٦٠٣)

إنما أنت حُجَّةُ الله لاحتْ ... في البَرايا ووارثُ الأنبياء

والحجة عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع في حكمه لأن حكمه الحق، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيراً بذلك إلى نظرية الدرر التي تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول صلى الله عليه وسلم بدأت أئمة آل البيت، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة الأنبياء، على نحو ما يزعم تميم. ونمضي في الديوان وفي قراءة مدائحه العزيز، وسرعان ما نلتقي بقوله فيه:(٦٠٤)

---

(٦٠٣) الديوان ص٢٦.

(٦٠٤) الديوان ص٣٨.

وهْو لسان التُّقَى ومقلتُه وهو يمينُ العُلا ويُسْراها
صُوِّرَ من جوهر النبَّوة إذ كان الوَرَى طينةً وأمواها
فمن يُطِعْه يَفُزْ بطاعتهِ ومَنْ عصاه فقد عصى الله

وواضح في البيت الثاني ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خلقوا من جوهر لطيف مصفي وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة، بل هي أجساد نورانية شفافة. والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام في مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يفوض إليه أتباعه أمورهم دون أي مناقشة أو سؤال، إذ هي فريضة توجب طاعة الإمام، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية. وكانوا يزعمون أ، كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدي المنتظر، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلاً:(٦٠٥)

أنت المسمَّى المرجَّى قبل مولِدهِ والخامسُ القائم المذكورُ في الكتبِ

وهو يشير في أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون في الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالٍ وصي لسلفه كما قدر الله وقضى ولا راد لقضائه، ويقول إنه القائم أو المهدي المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة في المغرب، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سراً. ويقول تميم أيضاً في العزيز:(٦٠٦)

---

(٦٠٥) الديوان ص٦٩.

(٦٠٦) الديوان ص٢٢٤.

ما أنت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القُدْس في جسم من البَشرِ
نورٌ لطيفٌ تناهي فيك جوهُره ... تناهيًا جاز حدَّ الشمسِ والقمر
معنًى من العلِّةَ الأولى التي سبقتْ ... خَلْق الهيولَي وبَسْطَ الأرض والمدرِ

والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين: نسبة بروحه إلى عالم القدس، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة، أما نسبته إلى عالم القدس فهي الجانب النوراني فيه، وهو جانب صافي لطيف، يجعل عقله فوق عقول البشر، عقلاً ممثلاً للعقل الكلي الفعال المتصل بالله، وقد سماه بالعلة الأولى، وجعله معنى من معانيه. وأوغل الإسماعيليون في هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبر الكون، وما يقولون إلا زورا وبهتانا. وتميم يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله، فهو سابق لخلق الهيولي أو المادة وخلق الأرض وما عليها. ونمضي في قراءة ديوان تميم فنجده يقول في إحدى مدائحه للعزيز:(٦٠٧)

وإنَّ جميع الغيب لله وحدَهُ ... تبارك من رَبٍّ ومن صَمَدٍ وَتْرِ
وما علمتْ منه الأئمة إنما ... رَوَوْهُ عن المختار جَدِّهم الطُّهْرِ

وتميم يجعل الغيب في البيت الأول لله وحده، وأشرك الرسول صلى الله عليه وسلم معه في علمه، وكأنه يصدر في ذلك عن قوله جل شأنه: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) ولو أنه سكت عند بيان ذلك لما كان في كلامه غلو، ولكنه لم يسكت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيراً إلى ما

(٦٠٧) الديوان ص٢٠٧. والوتر: الفرد.

يزعمه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم العيب عن الرسول وهو تماد في الغلو والبهتان.

وسنرى ابن هانئ يتمادى مثل تميم في الغلو، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشعراء فلا نجد أصداء واضحة لهما فضلاً عن أن تكون قوية في أشعار من خلفوهما في القرن الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعي الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصرياً، بل كان إيرانياً، وسنخصه بكلمة بعد ابن هانئ، والشاعر المصري الوحيد الذي ردد هذا النغم الإسماعيلي الغالي هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ وسنترجم له بعدهما، وكان يعاصره علي بن محمد الأخفش وهو مغربي وليس مصرياً، ونرى العماد الأصبهاني ينشد له في الخريدة بيتاً في الخليفة الآمر قائلاً:(٦٠٨)

إلى ذِرْوَةِ النُّورِ العَلائِيِّ إنه ... إلى ذورة النُّور الإلهيِّ يُنْسَبُ

وهو ينسب الآمر إلى نور الأنوار، إلى النور الإلهي الذي يعم الأكوان، ويذكر له العماد قصيدة في الخليفة الحافظ ملاحظاً أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح، إذ يقول فيه مستطرداً من وصف الخمر إلى مديحه:(٦٠٩)

صِرْفُ جِرْيالٍ يرى تحريمها ... من يرى الحافظَ فَرْدًا صَمَدَا

بَشَرٌ في العين إلا أنَّه ... من طريق العقل نورٌ وهُدَى

جَلَّ أن تَدْرِكه أعْيُنُنَا ... وتعالى أن تراه جَسَدا

---

(٦٠٨) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/ ٢٣٩.

(٦٠٩) الخريدة ١/ ٢٤١ والجريال: الخمر.

فَهْوَ في التسبيح زُلْفَي راكع ... سمع اللهُ به مَنْ حَمِدا
تُدْرك الأفكارُ فيه نَبَأً ... كاد من إجلالِه أنْ يُعْبَدَا

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصمدية، وكان دعاتهم يزعمون أن الله ينبغي أن ينزه عن الصفات والأسماء، وأن ما في القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هي صفات العقل الكلي الأول وأسماؤه. ومر بنا آنفاً أنهم كانوا يزعمون أنه ممثول الأئمة، ومن هنا أضفوا عليهم أسماءه وصفاته، وبالغوا فجعلوهم تجسداً للذات العلية، بل إن ابن الأخفش يخلي الحافظ من كل تجسد ومادة، فهو نور خالص لا تدركه الأعين. ويتمادى في هذا الغلو والبهتان الآثم، حتى ليكاد يجعله معبود الإسماعيلي في ركوعه وقيامه. ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعي دعاتها، إذ يروى أن الخليفة صعد المنبر يوم عيد، فوقف بإزائه، وقال يخاطب المصلين:(٦١٠)

خشوعًا فإن الله هذا مقامُهُ ... وهَمْسًا فهذا وَجْهُه وكلامُهُ
وهذا الذي في كلِّ وقتٍ بروزهُ ... تحيَّاتُه من ربَّنا وسلامُه

وهو غلو ما بعده غلو، بل هو انحراف عن جادة الدين ما بعده انحراف، وكأنما الحافظ تجسيد للذات الإلهية على نحو ما جسد المسيحيون الرب في المسيح.

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحي بن حسن بن جبر، وله مجموع(٦١١) في مدائح بني أبي أسامة كتاب الإنشاء في عهد الحافظ والآمر من قبله، ألفه سنة ٥٢٥ وجعله الشيخ الأميني في الغدير من شعراء المستنصر في سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه

---

(٦١٠) خطط المقريزي ٢/ ٢١٤.

(٦١١) الخريدة ٢/ ١٠٥.

بشهادة ترجمة العماد الأصبهاني في الخريدة إذ أنشد له شعرا في ابن[٦١٢] رُزِّيك الوزير الفاطمي من سنة ٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة في فضائل علي بن أبي طالب وبكاء الحسين أنشدها صاحب "الغدير" وفيها يقول:[٦١٣]

يا آل أحمد كم يكابد فيكُمُ	كبدي خطوبًا للقلوب بواكي
كبِدي بكم مقروحةٌ ومدامعي	مسفوحةٌ وجَوَى فؤاديَ ذاكي
وإذا ذكرتُ مصابكم قال الآسى	لجفونَي اجْتَني لذيذَ كراكِ[٦١٤]
وابْكِي قتيلا بالطفوف لأجله	بكتِ السماءُ دمًا فحقَّ بُكاكِ

وهو يغلو في مديح علي بن أبي طالب، وينسب له كثيراً من معجزات غير ثابتة، كرد الشمس إليه ببابل لقضاء فرض كان سيفوته وقته، ويزعم أن الريح سخرت له رخاء، ويقول إنه أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم صحيحة. ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانئ والمؤيد في الدين وظافر الحداد.

---

(٦١٢) الخريدة ٢/ ٢٣١ وما بعدها.

(٦١٣) شعراء الغدير ٤/ ٣١٣ وانظر أدب الطف ٢/ ٣٢٨.

(٦١٤) كراك: نومك.

ابن[٦١٥] هانئ

هو محمد بن هانئ المهلبي الأندلسي، ينتمي إلى المهلب بن أبي صفرة الأزدي القائد المشهور في زمن بني أمية ووواليهم فترة على خراسان، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد والي المنصور العباسي على إفريقية، وقيل: بل من سلالة أخيه روح واليها بعده. ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتهما بإفريقية، وكان من سلالتهما أبو الشاعر هانئ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهدية بتونس وكان شاعراً أديباً نزح إلى الأندلس داعياً – فيما يبدو – للمذهب الإسماعيلي هناك ونزل إشبيلية وفيها ولد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات، وبها نشأ وعكف على الأدب، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، فاتصل بصاحب إشبيلية وحظى عنده، غير أنه كان كثير الانهماك في اللذات، واتهم بأنه يعتنق مذهب الفلاسفة، أو لعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلي متابعاً في ذلك أباه، وكانتا تعدان تهمتين خطيرتين هناك فنصحه ممدوحه بالغيبة عن البلدة مدة فبارحها إلى إفريقية في السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن علي الأندلسي أمير الزاب وأخيه يحي فأكرماه ومدحها الشاعر مدائح بديعة بمثل قوله في جعفر:

المشرقات النيِّراتُ ثلاثَةٌ ... الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجَعْفَرُ

---

(٦١٥) انظر في ترجمة ابن هانئ وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص١٠٣ والمطمح للفتح بن خاقان ص٧٤ والمطرب لابن دحية (الفهرس) والجذوة للحميدي: ٨٩ وبغية المشس الملتمس رقم ٣٠١ ونفح الطيب (الفهرس) والإحاطة للسان الدين ٢/ ٢١٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٢/ ٩٧ ومعجم الأدباء ١٩/ ٩٢ وابن خلكان ٤/ ٤٢١ وعبر الذهبي ٢/ ٣٢٨ والشذرات ٣/ ٤١ وديوانه طبع قديماً بالهند.

وسمع به المعز فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ في الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتنق المذهب الإسماعيلي ويلجج في مديحه بمبادئ المذهب التي أسلفنا الكلام عنها، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها في صور مغالبة غلواً شديداً. وكان شاعراً مبدعاً فأبدع في مدائحه، كما أبدع في مديحه قواده وخاصة في جوهر الصقلي فاتح مصر، وله فيه حين يمم بجيشه مصر من القيروان عينية رائعة استهلَّها بقوله:

رأيت بعيني فوق ما كنتُ أسمَعُ ... وقد راعني يومٌ من الحشر أرْوَعُ
غداةَ كان الأُفْقَ سُدَّ بمثْلِهِ ... فعاد غروبُ الشمس من حيث تطلعُ

ونوه بالجيش وعظمه ورحلة جوهر المظفرة إلى الديار المصرية، ولم يلبث جوهر أن أرسل إلى المعز يهنئه بفتح مصر سنة ٣٥٨ فهتف ابن هانئ فرحًا مستبشرًا:

يقول بني العباس هل فُتِحَتْ مِصْرُ ... فقل لبني العباس قد قُضِيَ الأَمْرُ
ومُذْ جاوز الإسكندريَّةَ جَوْهَرٌ ... تصاحبه البُشْرَى ويَقْدُمُه النَّصْرُ

وجمع المعز أسبابه وتوجه إلى مصر سنة ٣٦٢ وشيعه ابن هانئ إلى أسرته بالمغرب لأخذها معه واللحاق به، وتجهز وتبعه، غير أه اغتيل في برقة لشهر رجب سنة ٣٦٢ ويقال إنه لم يشيع المعز بل كان في صحبته إلى أن دخل مصر ثم عاد إلى المغرب لأخذ عياله، واغتيل ببرقة كما ذكرنا. ولما بلغت المعز وفاته حزن عليه وتأسف قائلاً: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك. ولعله لم يكن يريد أن يفاخر به من حيث روعة شعره فحسب، بل كان أيضاً يريد أن يفاخر به من حين استظهاره للعقيدة الإسماعيلية ومبادئها المفرطة في الغلو إفراطاً بعيداً حتى لتنحرف عن الإسلام وجادته.

وبمجرد أن نقرأ في ديوان ابن هانئ نراه يردد أن إمامة الفاطميين ربانية وأنها فريضة مكتوبة على كل مسلم وأنهم يتوالون بترتيب إلهي وأنهم معصومون من كل زلل وأن طاعتهم من طاعة الله من أطاعهم استحق رضوان الله ومن عصاهم كان مآله الخسران المبين، يقول في المعز:

إمامٌ رأيتُ الدين مرتبطاً بهِ فطاعتُه فوزٌ وعصيانُه خُسْرُ

وهم دائماً مبرأون من الذنوب مطهرون من الآثام، بل هم نور الله ومشكاته في العباد، يضيئون للناس حياتهم، ويكشفون عنهم ظلمات الضلال، وكأنهم يتمون نور الله أو كأنهم يشاركون فيه، يقول في المعز:

وما كُنْهُ هذا النور نورُ جَبينهِ ولكنَّ نورَ الله فيه مشاركُ

ويكرر هذه الفكرة كثيراً في مثل قوله مادحاً للمعز:

تَسْعى بنورِ الله بين عبادهِ لتضيء برهانًا لهم وتَلُوحا
وجَد العِيانُ سَناك تحقيقاً ولم تُحِطِ الظنونُ بكنهِهِ تصريحا

وقد انتقل ابن هانئ نقلة واسعة فقد جعلا لمعز نوراً خالصاً، وكأنما فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضياءه فحسب، أما هو فكأنه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن في مدحه للمعز قائلاً:

أتبعتُه فِكَرِي حتى إذا بلغتْ غاياتها بين تصويبٍ وتصعيدِ
رأيتُ موضوع برهانٍ يلوح وما رأيْت موضوع تكييفٍ وتحديد

وقد خطا ابن هانئ في الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز يخلو من كل صورة للمادة، بل كأنما جعله الخالق نفسه، إذ نفي عنه ما ينفيه المعتزلة عن الله من كل تشبيه وتجسيد، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأي شكل من الأشكال. وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون في مسيحهم بأن في الإنسان لاهوتا وناسوتا أو روحا وجسما. وبالغوا فخلَّصوا – مثل ابن هانئ – أئمتهم من كل أثر للمادة، وجعلوهم روحا أو نورا خالصا، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته، حتى لنرى ابن هانئ يقول في المعز:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ فاحكمْ فأنت الواحدُ القَهَّارُ

ويقول فيه أيضاً:

ندعوه منتقماً عزيزا قادرا غَفَّارَ موُبقةِ الذنوبِ صَفُوحا

فالمعز الواحد القهار المنتقم العزيز القادر الغفار. وعلى هذا النحو زين لهم دعاتهم وشياطينهم أن ينزهوا الله عن أسمائه وصفاته في القرآن الكريم ويسبغوها على أئمتهم، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا يدانيه مروق. ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هانئ في المعز من أنه مقسم الأرزاق بين العباد:

رأيتك مَنْ تَرْزُقْهُ يُرْزَقْ من الوَرَى دِراكًا ومَنْ تَحْرِمْ من الناس يُحْرَم

فمن شاء رزقه ووسع رزقه ومن شاء حرمه وضيق عليه وجعل حياته ضنكاً، وكل شيء في الأرض بل في الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هانئ فيه:

أدارَ – كما شاء – الوَرَى وتحَيَّزتْ على السبعة الأفلاكِ أَنْملُهُ العَشْرُ

فهو لا يهيمن على شئون الناس وأحوالهم فحسب، بل هو أيضاً يهيمن ويسيطر على الأفلاك التي تصدر عنها الحركة في الكون. وكل ذلك لما لجوا فيه من أن الإمام ممثول

العقل الفعال المسيطر على الوجود، فجعلوه نفس هذا العقل الذي آمن به الفلاسفة، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التي ينبثق عنها الكون، مما جعل ابن هانئ يقول عن المعز:

هو عِلَّةُ الدنيا ومَنْ خُلِقَتْ له ولعلةٍ ما كانتِ الأشياءُ

وماذا بقي لخالق الكون؟ وحتى الحياة والموت ملَّكهما ابن هانئ للمعز يوزعهما على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطباً المعز:

لك الدهرُ والأيامُ تَجْرِي صُرُوفها بما شئتَ من حَتْفٍ ورزقٍ مقسَّم

فهو الذي يحيي ويميت وهو الذي يدبر الدنيا ويصَّرفها، وهو الذي يهيمن على الكون وينسقه، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القهار. ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هانئ إذ يقول:

أرى مَدْحَهُ كالمدح لله إنَّه قُنوتٌ وتسبيحٌ يُحَطُّ به الوِزْرُ

ويستضئ ابن هاني بكفرة الدور عند الإسماعيلية مراراً وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم ينتظمون معهم منذ آدم في أدوار سبعية، كل دور يختم بإمام سابع نبي أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسماؤه وصفاته، ومن هنا كانت تطلق على ممثوله من الأئمة، وهو الإمام السابع الحامل لنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منذ آدم. ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يمثل فيه نور نوح:

لو كنت نوحاً منذرا في قومهِ ما زادهم بدعائهِ تضليلاً

ويمثل فيه قبس موسى وشعلته وهداه:

من شُعلة القَبسِ التي عُرِضَتْ على موسى وقد حارتْ به الظلماءُ

ويمثل فيه نور المسيح الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله:

أقسمتُ لولا أن دُعيتَ خليفةً لدُعيتَ من بعد المسيح مَسِيحَا

ويمثل فيه نور الرسول صلى الله عليه وسلم المشاهد في كل نور بملكوت السموات: في الشمس والقمر والكواكب والنجوم:

وكأنما أنت النبيُّ محمَّدٌ وكأنما أنصارُك الأنصارُ

ويبلغ به الإلحاد في الدين أن لا يكتفي بحلول أرواح الأنبياء في المعز، بل يجعل الله يحل فيه، بل لكأنه الله، جَلَّ جَلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته إذ يقول في غير استحياء للمعز حين حلَّ بقربة رَقَّادة بجوار القيروان:

حَلَّ برَقَّادةَ المسيحُ حَلَّ بها آدمٌ ونوحُ

حَلَّ بها اللهُ ذو المعالي وكلُّ شيءٍ سواه ريحُ

وكان ابن هانئ شاعراً فذاً بارعاً، وإنا لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصبة التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة. وهو في رأينا يعد مسئولاً إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوى الخاطئة المنحرفة، وهو أيضاً إلى حد ما يعد مسئولاً عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز: أنا ربكم الأعلى، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه. وكان ابن هانئ يكثر من التشبيهات والاستعارات أحياناً في أشعاره، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي:

فتقَتْ لكم رِيحُ الجِلاد بعَنْبَرٍ وأمدَّكم فَلَقُ الصباح المُسْفِرِ
وجنيتُمُ ثَمَرَ الوقائع يانعًا يا لنَّصْر من وَرق الحديدِ الأخضَرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال ريحاً عاصفاً يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهب في الصباح المشرق الجميل. ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيوف شجراً مورقاً مثمراً وهم يجنون منه النصر المأمول، والقصيدة تكتظ بأبيات رائعة.

المؤيَّد(٦١٦) في الدين الشيرازي

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود، ولد بشيراز في العقد الأخير من القرن الرابع الهجري لأبيه موسى، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية، وتقدم في الدعوة، حتى استحق لقب حجة إقليم فارس، ونشأ ابنه على مثاله في الإخلاص لتلك الدعوة وما زال يسعى له عند الحاكم الخليفة الفاطمي (٣٨٦ – ٤١١هـ) حتى جعله خليفة له في فارس، ومنحه نفس اللقب الفاطمي: الحجة، وهو لقب رفيع من ألقابهم. وكان سيوسا، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له، وحاول أن يدخل أبا كاليجار الحاكم البويهي في عقيدته، ويقال إنه عقد له مجلساً كان يلقى فيه كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد الكتامي داعي الدعاة لعهد المعز، وأيضاً فإنه بنى مسجداً بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين، وطلب من أتباعه أن يؤذنوا فيه بأذان الإسماعيليين: "حي على خير العمل". ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر

---

(٦١٦) انظر في المؤيد ديوانه ومقدمته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه: في أدب مصر الفاطمية ص٥٩ ونشره للسيرة المؤيدية وراجع مختصر المجالس المؤيدية لحاتم بن إبراهيم نشر د. محمد بن عبد القادر عبد الناصر، وانظر معجم الأدباء ٣/ ١٧٥ وما بعدها في ترجمة أبي العلاء.

خسرو. وتنبه له الخليفة العباسي ببغداد، فأرسل إليه من يتعقبه، وخشى على نفسه، ففر مولياً وجهه نحو مصر والقاهرة: مركز دعوته، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لعهد الخليفة الفاطمي المستنصر، واستقر بها، وحضر مجالس الدعوة فيها، وعينه الوزير اليازوري رئيساً لديوان الإنشاء، وظل في هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سراً بدعاة الدولة في إيران والعراق، وأحس خطر طغرلبك السلجوقي حين تستقيم له العراق، فربما فكر في الاستيلاء على الشام ومصر، وكانت العلاقة ساءت بين طغرلبك وأخيه إبراهيم، وكان قد ولاه على الموصل، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه، ونشبت الحرب بين الفريقين، ورأى المؤيد في الدين الفرصة سانحة فكاتب البساسيري مقدم الأتراك ببغداد. وذهب إليه بنفسه محملاً بالأموال من المستنصر، ويحدثنا في سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب في طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه، يؤازرهم أهل الكوفة وواسط وحلب، وكيف وصل إلى بغداد، حيث وجد البساسيري قد أبعد الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى "عانة" سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر بالله، وظل ذلك نحو عام، حتى إذا قضى طغرلبك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيري ودعوته وأعاد الخليفة العباسي إلى عرشه. وفر في هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة، وتولى بها مرتبة داعي الدعاة جزاءً لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقاً ذريعاً، غير أنه حقق للفاطميين حلماً طالما رجوا تحقيقه وهو أن يدعي على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين قصير. وكتابه "السيرة المؤيدية" يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ ما اضطرب فيه من أحداث، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة.

وأخذ المؤيد في أثناء اضطلاعه بمرتبة داعي الدعاة يلقي دروسه بالجامع الأزهر، وقد جمعها في كتابه "المجالس المؤيدية" وهي تضم ثمانمائة مجلس له، وقد اختصرها حاتم ابن إبراهيم الداعي اليمني، وعنى بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة في العقيدة الفاطمية والتأويل الباطني وما يتصل به من الحكمة التأويلية، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندي ودحض آرائه الإلحادية.(٦١٧) وله رسائل متبادلة مع أبي العلاء المعري ناظره فيها طويلاً في تحريمه على نفسه أكل الحيوان وكل ما ينتجه من اللبن والبيض وعسل النحل، وقد احتفظ بها ياقوت في معجمه. وكان شاعراً كما كان كاتباً ناثراً، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة، وهو في مديح المستنصر الفاطمي وآبائه والدعوة إلى العقدية الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطني الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوي، فهم وحدهم الذين يعرفها موسى عليه السلام، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار في تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامة، وفي ذلك يقول في أولى قصائده بديوانه محتجاً بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملكوت أو أسراره ووقفها على الأئمة:

يا قومُ سِرُّ الملكوت هذا ... يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا
سرٌّ له صاحبَ موسى الخِضْرا ... قال معي لن تستطيعَ صَبْرا
تدبَّروا القصَّة ماذا يَمَّها ... من قَصَّها إن لم تكونوا نُوَّما

(٦١٧) انظر في ذلك كتاب تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة) ص٧٥ – ٨٨.

وكأن كل إمام خضر زمنه، وهو وحده الذي يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية، وهي معرفة اختص الله بها الوصي الأول علي بن أبي طالب وأبناءه الأئمة. والمؤيد في الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق، بل هي العقيدة الفاطمية التي تجعلهم نوراً خالصاً. لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هانئ، وقد مضى المؤيد وراءه يردد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية، ومضى يسبغ عليهم كثيراً من الصفات الربانية، حتى ليجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجون بأعدائهم في الجحيم، يقول:

يقسِمون الجِنانَ والنارَ فيهم فلكلٍّ نصيبُه الموجوبُ

كبرت كلمة بل كلمات تخرج من فمه، ويتمادى في هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه الفلوات للتبرك به، فهو القبلة والغاية التي ليس بعدها غاية، يقول:

هلمّ إلى الأرضِ المقدَّسة التي بساحتها سكّانُها أَمِنوا الموتا
إلى عَلم الإيمان والقِبلة التي عليها بلامِسْكٍ دُلِلْتَ ووُجِّهْتَا
وميزانِ ربِّ العالمين الذي بهِ تُوفَّى الثوابَ الجَزْلَ إن أنت وَفَّيْتَا

فالمستنصر وأمثاله ميزان الله في الأرض، بطاعتهم ومقدارها يكون الثواب وبعصيانهم ومقداره يكون العذاب، وما يزال المؤيد يردد مثل هذا الضلال والبهتان في ديوانه.

ومما ردده المؤيد طويلاً نظرية الدور التي تصور إيمان الإسماعيلية في أئمتهم وأنهم مثل العقل الفعال الأول في عالم الطبيعة، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون، وأيضاً

فإن أسماء الله الحسنى تسبغ عليهم، وقد رتبوا في أدوار تشترك معهم فيها الأنبياء والرسل منذ آدم، وكل منهم يمثل من سبقوه في هذه الأدوار من الأئمة والرسل، وفي ذلك يقول في المستنصر وآله:

سلامٌ على العتْرة الطاهرة ... وأهلا بأنوارها الزَّاهِرَهْ
سلامٌ بدئٌ على آدم ... أبى الخَلْقَ باديه والحاضرة
سلامٌ على من بطوفانِه ... أُديرتْ على مَنْ بَغَى الدائره
سلامٌ على من أتاه السَّلامُ ... غداة أحفَّتْ به النائره(٦١٨)
سلامٌ على قاهرٍ بالعَصا ... عُصاةً فراعنةً جائِرهْ
سلامٌ على الروح عيسى الذي ... بمبعثه شَرُفَتْ ناصِرَه(٦١٩)
سلامٌ على المصطفي أحمدٍ ... ولىَّ الشفاعة في الآخره
سلامٌ على المرتضى حَيْدرٍ ... وأبنائِهِ الأنجم الزاهره
سلامٌ عليك فمحصولهم ... لديك أيا صاحبَ القاهره
بنفسيَ مُسْتَنصرًا بالإله ... جنودُ السماء له ناصرهُ
شهدتُ بأنك وَجْهُ الإلهِ ... وجوهُ الموالي به ناضِرَة

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم الذي ألقاه النمرود في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وموسى صاحب العصا التي استحالت ثعبانا في مجلس فرعون فإذا هي تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب، وعيسى الروح الأمين الذي شرفت به مدينة الناصرة، ومحمد المصطفي

---

(٦١٨) النائرة: نائرة الحرب: شرها.

(٦١٩) ناصرة: بلد المسيح.

الشفيع المشفع في الآخرة، وعلي أو حيدر المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة. ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو علي والأئمة جميعاً قبله إماماً إماما. وهو بذلك وارث الأئمة والرسل، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم. ولا يكتفي المؤيد بكل ذلك، إذ يقول إن الملائكة جنده الذي ينصره في معاركه، وليس ذلك فحسب، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يسبغ عليه صفات الله وحدها، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله، وكأنه اتحد معه في ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآم علواً كبيراً، وهو ليس بهتاناً فحسب، بل هو ضلال مبين.

ظافر[٦٢٠] الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندري، من سلالة قبيلة جُذام اليمنية، كان أبوه حداداً بالإسكندرية، ولد له في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ويبدو أنه أرسله في صباه إلى الكتاب، ورأى من ذكائه ما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء، وهو مع ذلك يعاونه في حرفته. وأكب الصبي على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة، سوت منه شاعراً كان يلفت أقرانه، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة، جعلت شعراءها يتكاثرون، كما جعلت العماد الأصبهاني في

---

(٦٢٠) انظر في ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/ ١ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٢/ ٢٧ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٥٤٠ والرسالة المصرية لأبي الصلت أمية في الجزء الأول من نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٧٦ و "في أدب مصر الفاطمية" للدكتور محمد كامل حسين ص١٩٠ وظافر الحداد الحسين نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر).

الخريدة يترجم لكثيرين منهم. ولعل شيئاً من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعراً حداداً، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تلقي بالمساجد، ولكل شخص الحق في أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذي يريد الاستماع إليه، وكانت للشعراء في المساجد حلقات، مما أتاح لشباب العامة المشاركة في الشعر وفي العلوم العربية والإسلامية، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية، إذ نجد بينهم جزارا وحَمَّامِيًّا ووراقًّا وخيَّاطا وكحالا. وقد تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكر وتهيأت له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته، فإن ابن ظفر واليها من قبل الخليفة الفاطمي تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم، فخشي عاقبة الأمر وطلب حداداً كي يكسر حلقته، فجاءوه بظافر، فلما كسر الحلقة أنشده بديها:

قَصَّرَ في أوصافك العالَمُ ... واعترف الناثرُ والناظمُ
من يكنِ البَحْرُ له راحةً ... يضيق عن خِنْصَرِه الخاتَمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووهبه الحلقة وكانت من ذهب. وكان بين يديه غزال مستأنس قد ربض أو طوى قوائمه، وجعل رأسه في حجره، فقال له أحد الحاضرين: إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر في هذا الغزل المستأنس، فقال تَوًّا:

عجبتُ لجرأة هذا الغزالِ ... وأمرٍ تخطَّي له واعْتَمَدْ
وأعجبْ به إذ بَدَا جاثما ... فكيف اطمأنَّ وأنت الأسَدْ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه في الاستحسان. وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الذباب من دخوله، فتأملها ظافر وقال بديها:

رأيتُ ببابك هذا المنيفِ ... شِباكًا فأدركني بعضُ شَكّ

وفكّرْتُ فيما رأى خاطري فقلتُ البِحارُ مكانُ الشَّبَكْ

وكانت هذه الحادثة سببا في انتشار ظافر بمدينته، وتهاداه أعيانها وقضائها مثل ابن أبي حديد قاضيها وله فيه مدائح طريفة.

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين، وكان قد حجر على الخليفة الآمر وأصبح له الملك والسلطان كله، فاتخذ الأسباب إلى لقائه، ولم يكد يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقدمه على أقرانه، وسكن ظافر بجواره في الفسطاط، وأخذ يدبج فيه مدائح طنانة، وهو يغدق عليه من نواله مع راتب قدره له، وإلى ذلك يشير قائلاً:

وهذا الجنابُ الأفضليُّ يُكِنُّني ذُري ظِلِّه إني إذنْ لسعيدُ

وقدر لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبر الخليفة الآمر للأفضل من قتلة غيلة سنة ٥١٥ للهجرة، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحي، ولظافر فيه مدحتان يشكو فيهما من عوزه وضيق ذات يده، ومع ذلك يشكره على ما أولاه من نعم. ويبدو أن ما نعم به في زمن الأفضل من أموال انقطع بعده إلا قليلا، وكأن أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين، ولا يلبث الخليفة الآمر في سنة ٥١٩ أن يصادر المأمون ثم يقتله. حينئذ نجد ظافراً يفكر في تقديم مدائحه للخليفة، ولم يكن شيعياً فضلاً عن أن يكون إسماعيلياً طوال أيامه الماضية، فقد رأيناه حين نزل الفسطاط يقصر مدائحه على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، وكان سنياً، وكأن المأمون البطائحي من رجاله، ولعله لذلك لم يكن شيعياً أو بعبارة أدق لم يكن غالياً في تشيعه. على كل حال ليس في مديح ظافر له وللأفضل ما يدل على صلته بالتشيع الإسماعيلي

حتى هذا التاريخ. ولكن المأمون قتل، وكأنما دفع دفعاً لكي يمدح الخليفة الآمر، فأكب على ديوان ابن هانئ الأندلسي يدرسه ليتمثل معاني العقيدة الإسماعيلية، ويرى نهجه في عرضها بمديحه ليحتذيه، يقول في إحدى مدائحه للآمر مصرحاً بذلك دون أي مواربة:

أجادَ ابْنُ هانئ في المعَّز مدائحًا ... هداه إليها ذلك الفضلُ والمَجْدُ
وقد جادَ مَدْحِي فيك لما رأيتُ ما ... رأى فاسْتَوى المدحان والإِبْنُ والجَدُّ

ونراه فينفس هذه القصيدة يردده ابن هانئ من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمي فريضة واجبة، على كل إسماعيلي أن يعتنقها وأن يؤدي واجباتها، يقول:

فمن عاشَ أَحْياه نداه ومن يَمُتْ ... على حُبَّهِ طوعًا فمسكنُه الخُلْدُ
أطاعتْه أسرارُ القلوبِ ديانةً ... فما لامرئٍ لم يعتقد حُبَّه رُشْدُ
فطاعتهُ فرضٌ وخدمُته تُقًى ... ونُصْرَتُهُ دينٌ ومَرْضاتُه جَدُّ

فطاعة الآمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب، فمن أطاع فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران، وإن مرضاته لجد أو حظ أكبر، ولا إسلام إلا بطاعته وموالاته ومحبته. والآمر مثله مثل الأئمة قبله، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود، وهو بذلك النور الإلهي، نور السموات والأرض. ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هانئ فكرة النور التي يرددها في مديحه للمز قائلاً في الآمر:

إمامٌ تبدَّي للوَرَى من جَبينِهِ ... ضياءٌ به تُشْفَي بصائرُها الرُّمْدُ
ونورُك ما يُهْدِي الصباحُ لناظرٍ ... ولولاه ضلَّ الناسُ وامتنع القَصْدُ

وكأن ظافراً ينقل ذلك عن ابن هانئ دون أن يدرك مقصده تماماً وأن ممدوحه نور السموات والأرض، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التي تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هو مظاهر دورية العقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتي ينتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم علي وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلاً في مدحة أخرى للآمر:

أنت الذي بعثَ الإلهُ لنا بهِ ... آباءهُ فتمثَّلوا بِمُثولهِ
هذا ضياءُ الله والمعنى الذي ... تتفاضلُ العلماءُ في تعْليلهِ
مازال يَنْتُقل الإلهُ مُطَهَّرًا ... عن ظَهْر مثلِ ذبيحه وخليلهِ
وتوارثتْه الأنبياءُ وسادةُ الـ ... ـخلفاء حتى حان وقتُ حُلولهِ

فآباء الآمر من الأئمة والأنبياء قد تمثلوا فيه بميراثهم الرباني من النور الذي يعم أطباق السموات والأرض، وما زال الله ينقل هذا النور من بني إلى نبي ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل ذبيحه ومثل علي وجعفر الصادق إلى أن حل في الآمر المطهر المحفوف بالعناية والإلهية والنفحة النوارنية، ومن ثم كان ابن هانئ يقول في المعز أنه جوهر الملكوت وإنه العقل المدبر للكون.

ولم يكن ظافر يتغلغل في العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانئ في المعز ويرددها في الآمر. وهو معنى ما قلناه في غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانئ. ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجده يضيف إلى قيثارة مديحه للآمر وترين لا نجدهما عند ابن هانئ، وهما ميراث الآمر وآبائه الرسول صلى الله عليه وسلم، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير

المعراج، ثم الاتساع بخياله في بيان سحق جيوش الآمر للصليبيين، وكانوا قد استولوا في عهده على بيت المقدس وكثير من ثغور الشام وبلدانه، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطون في غفلة لا تدانيها غفلة، وكأن ظافراً يحاول إيقاظاً الآمر ودفعه للذب عن حرمات الإسلام وديار ه أمام حملة الصليب، وهو في ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فزعهم للغزو الصليبي وما يأملون من القضاء على حملة الصليب قضاء مبرماً. وهذا الوتر في مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوي أتاحا لمدحته له أن لا تقف عند المبادئ الإسماعيلية في مدح الأئمة الفاطميين إلا لماما وإلا عند هذا الظاهر السطحي منها الذي صَوَّرْناه.

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قتل الآمر سنة ٥٢٤ وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا علي بن الأفضل الجمالي السني وزيراً له، حينئذ نجد ظافراً يمدحه مدحاً يخلو خلو تاماً من هذا الغلو الإسماعيلي الذي رأيناه في مدائح الآمر. وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الآمر لم يترك ابنا، وقيل بل ترك طفلاً رضيعاً اسمه الطيب، وتعصبت له جماعة سميت الطيبية وتعصبت جماعة أخرى سريعاً للحافظ عبد المجيد ابن عم الآمر، وأخذت له البيعة استولى على مقاليد الخلافة. وظل من ذلك جمر مختف وراء الرماد، مما جعل ظافراً يدافع في بعض مديحه للحفاظ عنه وعن حقه في الخلافة قائلاً:

ورثَ ابنُ عمَّ محمدٍ من بعده ... حتىَّ الخلافةِ مُنْصفا في نَقْلها
وورثْتَ أنت عن ابن عَمَّك حقَّها ... فجرى قياسُ خلافةٍ في شكلها

فالحافظ ورث الخلافة عن الآمر كما ورثها عن الرسول صلى الله عليه وسلم ابن عمه على ابن أبي طالب رأس الأئمة. ولا يلح ظافر فيما كان يعتقده الإسماعيليون في أئمتهم من معان قدسيه ومن رفعهم عن حدود الطبيعية البشرية المادية، فهو إنما يمدح الحافظ بميراثه للرسول مما يجعله يطيل في بيان معجزاته. ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كلما استبقاه من العقيدة الفاطمية في مديحه قوله.

يا حُجَّةَ الله التي أبدتْ لنا بِكمالها الآياتِ والبُرْهانا

وكأنما حدث انقلاب في مديح ظافر للحفاظ بالقياس إلى مديحه للآمر، وليس له في الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش في مدة خلافته خمس سنوات، إذ توفي سنة ٥٢٩. وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يدل على أن ظافراً لم يكن إسماعيلياً بالمعنى الدقيق، وإنما هي فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها لمديح الآمر على طريقة القوم، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هانئ يستظهر ما فيه أو بعضاً مما فيه، ولم يعد استظهاره قشوراً، رددها حيناً في مديح الآمر ثم كف عنها في مديح الحافظ إلا ما سقط عفواً.

وبدون ريب كان ظافر شاعراً بارعاً وفيه يقول العماد الأصبهاني في ترجمته له بكتابه الخريدة: وظافر، بحظه من الفضل ظافر، يدل نظمه على أن أدبه وافر، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر حَدَّاد لو أُنصِفُ لسمَّي جوهريًّا، وكان باعتزائه إلى نظم الآلئ حريًّا، أهدى بِرَوِيَّ شعره الَّرويّ للقلوب الصَّادية(٦٢١) رِيًّا، فيا له ناظما فصيحا مفلقا جَرِيًّا ".(٦٢٢) وحقاً شعره غاية في السلاسة والعذوبة، وهي ظاهرة عامة تلاحظ دائماً

---

(٦٢١) الصادية: الظامئة.

(٦٢٢) جريا: جريئاً.

في شعر المصريين، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبديع ومحسناته المعقدة، قد تأتي عندهم وقد يستخدمونها أحياناً ولكن في خفة ورشاقة. ودائماً تلقانا عند ظافر العذوبة والرقة على نحو ما ترى في مثل قوله متغزلاً:

يا ساكني مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ ... فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلُبِّهِ
أمن المروءةِ أن يزورَ بلادكم ... مثلي ويرجعَ مُعْدمًا من قبلهِ

وهما بيتان في منتهى السهولة، وكان ينفذ كثيراً إلى صور طريفة مبتكرة، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حالمة على شاكلة قوله:

لئن أنكرتْ مقلتاها دَمَهْ ... فمنهُ على وَجْنَتَيْها سِمَهْ
وها في أناملها بَعْضُه ... دَعَتْهُ خِضاباً لكي تُوهِمَهْ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المغرق في الوهم إغراقاً يروع قارئه، وسننشد له قطعة من غزله في الفصل التالي، ونكتفي بصورة واحدة من صوره الحالمة العجيبة لندل على هذه المقدرة البارعة، وهي صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده، يقول:

تأمَّلْ بنْيةَ الهرمين وانْظُرْ ... وبينهما أبو الهولِ العجيبُ
كعَمَّاريّتَيْنِ على رحيلٍ ... لمحبوبين بينهما رقيبُ
وماءُ النَّيل تحتهما دموعٌ ... وصوتُ الريح عندهما نحيبٌ

وهي صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الحالمة، فالهرمان كأنهما عمارَّيتان أو هودجان هرمياً الشكل لمحبوبين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب، يشهدهما ساعة الوداع، وهما يذرفان الدمع مدراراً، ويهمي تحت أقدامهما نهراً فياضا كبيرا هو نهر

النيل، والريح من حولهما تنتحب وتئن أنينًا لا ينقطع. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية.

obeikandl.com